مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ فَاطِر

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة فاطر

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة فاطر

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤) ﴾

ابتدأت واستهلت افتتاحية سورة فاطر بمثل ما ابتدأت به سورة الأنعام وسورة سبأ، بالحمد لله، غير أنه في هذه السورة ذكر عَزَّ وجل الخلق والإنشاء، قال اللهُ تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفي السورتين السابقتين: ذكر عَزَّ وجل ملكه لجميع ما في السماوات والأرض ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والذي يفيد المدح والثناء على خلقه وملكه للسماوات والأرض، وأن ما فيهما من شيء إلا وهو مالكه والمتصرف فيه كيف يشاء سبحانه وتعالى. بما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، الدال على أن كل شيء عبد له جَلَّ جلاله، وتحت مشيئته وسلطانه، وأنه القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

ويقرر سبحانه وتعالى في مطلع السورة أن الحمد له وحده لا شريك له ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فخصص الحمد الذي هو الشكر والثناء والمدح الكامل له سبحانه وتعالى، وأن له جميع ما أنعم به على العباد، وأنه منه وحده لا شريك له، بما يُثبت أن له العبودية والألوهية لا شريك له، وأن حمد العباد يجب أن يكون له عَزَّ وجل، وفي هذا مدح لربنا تبارك وتعالى بما هو حق له جَلّ جلاله. ولفظ الجلالة ﴿ لِلَّهِ ﴾ بعد الحمد يفيد تقرير الربوبية له عَزَّ وجل، وتقرير الألوهية له سبحانه وتعالى، وكذلك تقرير صرف العبادة له عَزَّ جاهه؛ والتي منها الحمد.

وفي صرف الحمد له عَزَّ وجل اعتراف من العبد بربوبيته وألوهيته ومُلكه جَلَّ في علاه، وكذلك توحيده بالعبادة. مما يفيد أن من لوازم هذا الإخبار من الله تعالى لعباده، هو أنه يلزم العباد دوام الشكر على ما أنعم به عليهم من الإيجاد، والأرزاق، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهدايتهم وتوفيقهم.

وارتبط الحمد في الآية الكريمة بنعمة خلق ومُلْك السماوات والأرض وما فيهما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وقد شملت دلالة ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنه مخترعهما، وأنه مبدعهما، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وقد شمل خلق السماوات كل مرتفع عن الأرض من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت الأرض كلما هو عليها أو خارج على سطحها، أو في داخلها وباطنها.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أن من دواعي الحمد والشكر، هو خلقه السماوات والأرض، يعقبها بنعمة أخرى، بأن جعل عَزَّ وجل الملائكة رُسُلاً إلى أنبيائه، وإلى حيث يشاء عَزَّ وجل ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وأورد سبحانه وتعالى مهمة إرسال الملائكة عامة ﴿رُسُلًا﴾ لتشمل جميع ما يأمرهم به، لمن يشاء من عباده، وفيما يشاء من أمره ونهيه. ثم أورد تبارك وتعالى شيئاً من صفاتهم ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ أي: أن لهم أجنحة، وهي مختلفة من حيث العدد ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ فمنهم من له اثنان من الأجنحة، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة. وفي هذا التنوع إظهار عظيم قدرته عَزَّ وجل، مع بيان التفاوت في قدرات مخلوقاته في السماوات، كما هو التفاوت في مخلوقاته على الأرض، لإظهار عظيم إبداعه جَلَّ جلاله. وفي هذا تدليل على أن الله تعالى يرسل الملائكة على من يصطفيهم بالرسالة، فينقلون للمرسلين مراد الله تعالى. ليفيد: كيف تنكرون الرسل على مَنْ هذه قدرته جَلَّ في علاه؟ وكيف تكذبون بالكتب؟ ولا تصدقون باليوم الآخر، وتنكرون البعث.

ثم يبين تبارك وتعالى لطفه في الزيادة والتفاوت في جميع خلقه ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ فإن ربكم يزيد في مكونات خلقه بحسب ما يريد جَلَّ جلاله. سواء ما كان في تفاوت الملائكة، فيزيد فيها وفي أجنحتها، أو غيرها من المخلوقات. فقد ورد بيان الزيادة عاماً وشاملاً لجميع الخلق ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ سواء من حيث العدد، أو مكونات الهيئة من الحسن والقوة والقدرة، والعطاء، أو غير ذلك بما يشاء. كما أن له أن

يُنقص ما يشاء، لأن له كمال القدرة والسلطان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى قادر على كل ما يريد، من غير استثناء. وفي هذا تعليل لكمال القدرة. فدلالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾ تستوفي كل شيء، وتنفي التبعيض، وتُثبت كمال القدرة، وقد ورد مطلعها بحرف التوكيد ﴿إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، من أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير. فكل هذا البيان يوضح للعباد عظمة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. وبالتالي يجب الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وباليوم الآخر، وبالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه المتفرد بالعطاء والمنع لعباده، فلا ما نع لما يعطي، ولا عطاء لما منع، فالأمر كله له عَزَّ وجل ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فما يأتي من الله تعالى إلى عباده من عطاء فلا يرده أحد، ولا يستطيع أن يمنعه مخلوق عن مخلوق. وورد العطاء بدلالة الفتح ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ الذي يعني: العطاء وكثرته، الذي هو ضد الإغلاق والمنع، بل تشير دلالة الفتح إلى كثرة العطاء من لخزائن التي لا ينقص منها العطاء. بل دل السياق على المبالغة في كثرتها وتنوعها، إذ أورد ﴿لِلنَّاسِ ﴾ بلفظ العموم ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ ليشمل عموم جنس الإنسان. وسَمَّى تبارك وتعالى عطاءه بالرحمة ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ ﴾ ليدل ويفيد أن عطاء الله تعالى للناس رحمة، ودلالة الرحمة أنها جامعة للخير بجميع أنواعه التي لا تحصى، كالأرزاق وصنوفها وأنواعها، وكالهداية، والصحة والعافية، والتوفيق والتيسير، وغيرها من الإنعام الذي لا يحصيه أحد، فالرحمة هي كل نعمة ينعم بها الله تعالى على عباده. فهذه الرحمة إذا فتحها الله تعالى على من يشاء ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا ﴾ فلا أحد يستطيع أن يمنعها عن من فتحها الله تعالى عليه، سواء كانوا أفراداً، أو جماعات، أو أمة، أو أمماً. مما يغرس في المؤمن التوكل على الله تعالى، وأن ربنا تبارك وتعالى إذا أراد خيراً فلن يمنعه أحد، مهما كانت قوته. وهذا يعطي المؤمن قوة إيمانية لا يمكن أن يدركها إلا من كان مؤمناً، وموقناً بأن ما يعطي الله تعالى لا يمنعه أحد.

وكذلك إذا منع شيئاً من رحمته فلا يستطيع أن يأتي بها أحد لمن مُنِعَ عنه شيئاً من عطاء رحمته عَزَّ وجل ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ وكل شيء يمنعه الله تعالى، فلا أحد يستطيع أن يجلبه ويبعثه من بعد أن قضى الله تعالى بإمساكه. لأنه تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فهو سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وبالتالي

يستحيل على أحد أن يمسك ما أعطى، أو يعطي ما منع عَزَّ وجل. كما أنه تبارك وتعالى هو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، فيعطي بحكمته، ويمنع بحكمته، وله كمال الحكم والعدل، فيضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. ليُعَلِّمَ عباده أهمية التوكل عليه سبحانه وتعالى، وأن لا يخاف العبد إلا من الله تعالى، ولا يرجوا إلا الله عَزَّ وجل، وأنه سبحانه وتعالى إذا أراد لعبد شيئاً فلن يمنعه أحد، وإن منع جَلَّ جلاله شيئاً عن أحد أو قوم فلن يجلبه أحد لأحد، فعلى العبد أن يلتجئ إلى ربه عَزَّ وجل في جلب الخير، ودفع الضر وكشفه. وليعرف العباد أن الملك لله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، وأنه المتصرف في ملكه بما يشاء جَلَّ جلاله.

ثم يُوجه الله تبارك وتعالى عباده إلى أن يتأملوا ويذكروا إنعامه ونعمَه عليهم سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ فيوجه الخطاب للناس جميعاً، بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بجنس الإنسان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ليشمل جميع البشر.

ثم بعد النداء يأمر عباده جميعاً، بأن يذكروا إنعامه عَزَّ وجل عليهم ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي نعمة الإيجاد، والرزق، وجميل الخلقة، وما أنعم عليهم من العقل، والقدرة على التفكير، والحركة، وما سخره لهم من لإنعام في المطاعم والمشارب، والزروع، والأنهار، والمياه، والأمطار، والهواء، وما أعطاهم وخلق لهم من البهائم والأنعام التي منها ركوبهم، ومنها ما يأكلون، وما مكنهم من الابتكار، والفهم في البناء، والصناعة والتجارة، وجميع ما يحصلون عليه من الحياة الطيبة، كما تفضل عليهم بإرسال الرسل، وأنزل الكتب، وشَرَّع لهم الشرائع التي تضبط لهم تعاملهم وطاعتهم لربهم سبحانه وتعالى، ومعاملاتهم وسلوكهم مع بعضهم البعض، ومع جميع مخلوقاته عَزَّ وجل. وهذا التذكير لإفادة وجوب شكره عَزَّ وجل وطاعته باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، فأدوا حق هذه النعم بالشكر الذي يتحقق باللسان، وبالاعتقاد، وبالطاعة والامتثال لله تعالى، مع توحيده، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يُجمل تبارك وتعالى إنعامه للناس في أمرين عظيمين وشاملين لجميع مفردات الإنعام. وبأسلوب السؤال الذي يحملهم على التفكر، ويتقرر لهم به الحقيقة ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وهو الخلق والرزق ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ ﴾ وفي ذلك إثبات الخلق الذي لا تنكره الفطر السليمة الصحيحة. هل هناك خالق خلق الوجود غير ربكم؟ ومنها الرزق. فلا أحد يقول بأن هناك غير الله عَزَّ وجل خلق هذا الكون

كله، فإذاً يلزمكم مهابة عزته، مع شكره، وطاعته ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كما فيه إثبات الرزق، وحصره بأنه من الله تعالى، سواء ما يكون من السماء، أو ما يكون في الأرض. وأورده سبحانه وتعالى بصيغة السؤال المتضمن لنفي أن أحداً يرزق غير الله تعالى، وكذلك هو سؤال تقريري. يقرر به ما لا يستطيعون نكرانه، وهو أن الرزق من الله وحده لا شريك له، فهل هناك من أحد يرزقكم من السماء والأرض؟ والجواب: لا يوجد. لأن الماء الذي ينزل من السماء لا يأتي به غير الله تعالى. وهو الذي يسقي به الزرع، وترتوي به الأرض، ويرتفع به منسوب الماء إلى أعلى الأرض، وهو الذي يجعل الأرض تنبت بالزروع المختلفة في ثمارها وأشجارها. فهذا السؤال يقررهم بأنه لا أحد يرزقهم غير الله سبحانه وتعالى. وبالتالي يجب عليكم شكره وطاعته، ومحبته، وعدم الإشراك به، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

فهو سؤال يستثير الذهن والفكر، نحو إدراك الحقيقة، وما يتبعها من الإيمان ولوازمه من الطاعة والامتثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فهل هناك أحد غير الله تعالى يُنَزِّلُ عليكم الرزق من السماء؟ ومنه المطر، الذي تنبت به الأرض، ويخرج به الزرع والثمار التي تتغذون وأنعامكم بها، هل أحد يستطيع أن ينزل المطر من المخلوقين، وأن يُخرج لكم من الأرض ما تأكلونه وما تدخرون في بيوتكم؟ فهل هناك رب غير الله تعالى يخرج لكم ذلك من غير فعل منكم؟ فمن الذي يخرج لكم زروعاً مما تبذرونه من البذور الجافة التي لا حياة فيها، فتصبح تلك البذور مزروعات قد دبت الحياة في عروقها وأغصانها وثمارها؟ وهو سؤال استنكار وسؤال تقرير، يقررهم بما يدركونه، بأنه لا يرزقهم ذلك إلا الله تعالى. وهو في نفس الوقت سؤال استنكار عن مخالفتهم لما هو متقرر لديهم، فلا أحد يستطيع أن يقول أنا الذي أُنْزِل المطر أو أُخرج الزرع من الأرض، فكيف إذاً تنحرفون عن عبادته عَزَّ وجل إلى عبادة من لا يسمع ولا يعقل، ولا يمنع ولا يعطي.

بل ومن غزارة البيان إطلاق الرزق على جهة العلو، وعلى جهة الأرض ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ليشمل كل ما يأتي من العلو، سواء مما يُقَدِّرُهُ اللهُ عَزَّ وجل، ويأمر به، أو ما ينزل من المطر، أو جريان السحاب، أو ما تنقله الرياح من مكان إلى مكان، وكذلك ما للشمس من أثر على الإنسان والأشجار، وما يقدره الله تعالى بحكمته من السماء. وكذلك إطلاق الرزق على ما يخرج من الأرض، ليشمل الإنبات من الزروع والأشجار، وينابيع المياه، والأنهار التي يشرب منها الإنسان والدواب، وغيرها مما هو على الأرض من الدواب التي خلقها الله تعالى من غير ما إرادة من الإنسان، وكذلك لتستوعب المعادن والمياه والسوائل التي يستخرجها الإنسان من الأرض، أو من باطنها أو سطحها، أو ما هو في قمم جبالها، أو ما يجري فيها من الأنهار والبحار. وفي هذا استثارة الذهن نحو ما يراه ويسمعه ويحسه ويشاهده الإنسان، ليتعلم منه الحقيقة التي لا ينكرها العقلاء من جنس الإنسان، مما يفيد أهمية الدعوة والنصح والإرشاد والتعليم من خلال لفت انتباه المتعلمين إلى الحجج والبراهين الكونية، والتذكير بها، وتفصيل الحجج البيانية المتعلقة بها.

ثم ألحق بذلك البيان إثبات وحصر العبودية له عَزَّ في علاه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله تعالى، وبما يفيد أن كل معبود غيره فهو بغير حق. فينفي بذلك كل معبود غيره سبحانه وتعالى. وقد تضمنت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي الألوهية على وجه العموم ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أفاد النفي، ثم حصرها له عَزَّ وجل ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى فهو باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل.

وبعد بيان الحقيقة وتجليتها للناس، يوجه لهم تبارك وتعالى سؤالاً عن انصرافهم عن الحق إلى الباطل، وانصرافهم عن توحيده إلى الإشراك به، فيقول عَزَّ وجل للمُخَاطَبين وهم عموم الناس ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرفون عن الحق الظاهر لكم من الحجج والآيات الكونية العظيمة. سؤال عن انصرافهم للباطل عن الحق الواضح المبين، بما يفيد التعجب من أنه بالرغم من وضوح جميع الحقائق كاملة البيان والوضح، إلا أنه مع ذلك يذهبون إلى الباطل والفاسد. ومعنى ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون، وقد حُذف الفاعل المسبب لانصرافهم، حتى يستوفي جميع أسباب وعلل انصرافهم عن الحق إلى الباطل، من الاستكبار، أو العناد، أو تقليد الغير، أو الحسد، وغير ذلك من الأسباب والموانع الباطلة.

ومعنى ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي: فكيف لكم أن تنصرفوا عن الحق الظاهر لكم من الحجج والآيات الكونية العظيمة، وما أمدكم به من الإنعام التي يعجز عنها كل مخلوق، ولا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه وتعالى. فهي محاجة تنهض بالفكر من غفلته وسباته إلى اليقظة والانتباه، لمن أراد الحق. فكيف تتجهون بعقولكم نحو الباطل ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عقولكم عن الحق نحو الباطل، تاركين وصادين عن الحق، ومجاهرين بما هو مضاد للحق. فتصرفون عبادتكم وتوجهكم لما لا يرزق، ولا يخلق، ولا يُحيي ولا يُميت. فإنها محاجة بليغة الأثر، وقوية البيان والحجة والبرهان، فلا يصد عنها إلا مكابر معاند.

ومن جميل السياق ودقته أنه جاء الإنكار عليهم بعد تقرير الحق، وتجليته، وكان بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفكم عقولكم عن الحق، فتذهبون إلى معبودات لا ترزق، ولا تحكم، ولا تنشئ، ولا تحيي ولا تميت؟ فكيف تصرفون العبادة لغير الله تعالى وأنتم تعلمون أنه الله هو الخالق، المنعم عليكم بالنعم التي تعيشونها؟

وبعد هذا البيان العظيم عن مظاهر قدرة الله تعالى، وبيان رحمته بخلقه، وتدبيره وهيمنته على شؤون الكون كله، بما يُثبت ألوهيته، يتدرج البيان الكريم إلى النتيجة التي يمكن أن تكون من قوم الرسول صلى الله

عليه وسلم، وهي التكذيب به عليه الصلاة والسلام، ورد دعوته لهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فإن لم يستجيبوا لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين. فقد تم تكذيب غيرك من المرسلين السابقين، فجحدوا بها، وهم بصدقه مستيقنون.

ومن دقائق البيان العظيم أن ورد البيان لحالهم بأسلوب الأمر المتوقع، والخيار الذي ممكن أن يكون منهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ وفي ذلك معالجة للواقع الممكن أن يكون، فهو احتمال وارد. وفي بيان احتمال وقوعه ما يدفع عن النبي صلى الله عليه وسلم المفاجأة منهم. بالرغم من أن الله تبارك وتعالى عالم بما سيكون منهم قبل أن يكون. ولكن هو التعامل مع مقتضيات الأحداث وفق سنن الله تعالى، بما يبين ويؤكد أهمية وضع الاحتمالات الممكنة في كل شأن يسعى إليه الإنسان، حتى يتحرز ولا يتفاجأ بالنتيجة المعاكسة، أو التي لم يضعها في الحسبان.

وذكر تبارك وتعالى تفسيراً لما يمكن أن يكون، مع بيان المعالجة، من خلال الاقتداء والتأسي بمن كان من المرسلين السابقين ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فإن لم يؤمنوا بك، وواجهوك بالتكذيب، فإن لك بمن كان قبلك من المرسلين أسوة. فالأمثال السابقة لمثلهم كثيرة جداً. فقد كذبت أقوام رسلهم فيما سبق. بل ورد الإخبار بأدق السياق والبيان، حيث ورد لفظ الرسل نكرة ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ لإفادة الكثرة، كما ورد التكذيب بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله، لإظهار شأن التكذيب وكثرته، فلا حاجة لذكر عدد الأمم التي كذبت المرسلين، لكثرتهم. وبالتالي فلا تبتأس، ولا تحزن إن حصل منهم التكذيب، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم لمواجهة تكذيبهم. كما فيه وضع الاحتمال المتوقع في الحسبان، حتى لا يتأثر عليه الصلاة والسلام بما يمكن أن يكون منهم. وفي هذا إعطاء منهجية التعامل مع الأمور والأحداث، بأنه لا يتصور ويتوقع الإنسان أن تكون الأمور كما يرسمها أو يتوقع كونها، فالعلم عند الله عَزَّ وجل، فيضع جميع الاحتمالات الممكنة، حتى يتلقاها بقلب رحب، وسعة بال، ولا ينصدم بمجرياتها ونتائجها.

ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك الإنباء والإخبار بالمحتمل منهم، والتعريض بالمحتمل، فأكده بأن مرجع الأمور كلها له عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فإن نتائج الأمور راجعة إلى الله تعالى، تدبيراً وحكماً ومآلاً، بما يزيد من ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فإنه إذا انغرس في قلب المؤمن أن الأمور ونتائجها عائدة إلى الله تعالى، اطمأن، وتقبل تلك النتائج، من أنه لم ولن يحدث خلاف حكمة وإرادة الله تعالى وتدبيره عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى جعل الأمور كلها راجعة إليه، حيث وردت الأمور بصيغة الجمع ﴿ ٱلْأُمُورُ ﴾ لتستوفي أمور هؤلاء وغيرها من أمور ومجريات الكون كله، والعباد جميعاً، فتعود له حكماً وحكمة وإرادة، ومآلاً. فإنها لا تعود إلى مشيئة وإرادة غيره جَلَّ جلاله، بل لمشيئته وحكمه وإرادته عَزَّ في علاه، حيث يستوفي كل فرد جزاء ما كان منه. مما يبعث الطمأنينة بأنه لن يكون في الكون خلاف تدبير ومشيئة الله تعالى. وكما أن في هذا تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ففيه تهديد للمشركين، بأن شأنهم وأمرهم ومآلهم راجع إلى الله تعالى، وليست عائدة إلى مشيئة وإرادة غيره، فلا تحسبون أنكم في معزل عن حكم وحكمة وإرادة الله تعالى ومشيئته. فإن شاء أجرى شأنكم وفق مراده سبحانه وتعالى، ووفق مراد رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن اقتضت حكمة الله تعالى أن كل إنسان مأخوذ بما كان منه.

ويعتبر قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ قاعدة عظيمة في تحقيق الاستقرار والطمأنينة النفسية للمؤمنين الذين يستحضرونها في شؤونهم. فإذا أدرك المؤمن أن الأمور راجعة إلى الله تعالى تحقيقاً، وتأخيراً، وتبديلاً وتأجيلاً ومنعاً، كان أثر ذلك إيجابياً عليه في مواجهة الأمور ومعالجتها. فإن استقوت الأمور أمامه امتناعاً تذكر قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وإن رأى الأمور تجري امتثالاً لمراده، قال بما قاله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وإن وقف غيره ضد مراده، أدرك أنه لن يحصل ولن يسير إلا ما أراده الله تعالى، فقال في نفسه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وإن رأى نفسه أو غيره في خوف من شأن، وعظه ووعظ نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وإن تكالبت الأمور على غيره، أرشده إلى قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فإن سعادة المؤمن في جميع شؤونه أن يتذكر ويستصحب دائماً قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فما أجمل أن تعود كل الأمور إلى العالم بما يصلح وما لا يصلح للعباد. فعلمه أبعد وأصح من فهم العباد في إدراك المنافع، ومغبات الأمور، وما سيجري وراءها من المجريات والأحداث. فهو أعلم من العبد بنفسه. اللهم قدِّر لنا الخير، واختاره لنا في كل شأن، وارضنا به، وارض عنا برحمتك وكرمك وفضلك يا رب العالمين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ

حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ويتكرر من الله تعالى النداء للناس جميعاً، بما يعظهم ويوجههم إلى الحق والخير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ بدأ البيان الكريم بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيتطلب ويستدعي منهم الإصغاء، والتعقل ولانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، وليدل على أهمية ما ناداهم إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ به والاهتمام؛ مع قوة الالتزام.

ثم بعد مناداة جميع الناس يقرر لهم ربهم حقائق وعده، وما وعد به من وعود البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وما سيكون من تدبيره وحُكمه وقضائه ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ فإن ما وعدكم الله تعالى به من البعث بعد الموت، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، فإنه وَعْد حق لا كذب ولا ريب ولا شك فيه، فهو حقيقة كائنة، وستعيشونها كما أخبركم ربكم بها تماماً. وطالما أن الأمر كذلك فاحذروا من أمرين: الأول: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فلا تخدعكم بشبهاتها وشهواتها، وبلذائذها وفتنتها، قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: غرور الحياة الدنيا: أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة[1] وفي تسميتها بالحياة الدنيا، ما يدل على أن هناك حياة هي أعلى وأرفع وأرقى وأميز منها، وهي الحياة الآخرة التي تلي الحياة الدنيا، والتي ليس فيها فناء، كما هي حياة الدنيا. فإذاً لا تلتهوا وتنشغلوا بالحياة الدنيا عن الحياة الآخرة.

والغرور: هو مخادعة مبنية على اطماع وإيهام النفع والصلاح في أمر يحمل الضرر. وهو محبوب ومرجو فيما هو إضرار وفساد، فهو إظهار الشيء بغير حقيقته، رغبة في أخذه، أو ممارسته. أي: هو المخادعة في إظهار الشيء على غير حقيقته، بالترغيب فيه. وبالتالي الحذر من صفة ما في الدنيا من مغريات، جاذبة للإنسان نحو السعي وراءها، والانشغال عن الأخير والأفضل، فيقضي الإنسان وقته في متعة الحياة الدنيا الزائلة عنه بموته، أو ضعفه، أو زوالها عنه بأي وسيلة كانت، فالمفارقة بينه وبينها متحققة، ومعروفة عند كل أحد من الناس. فلا تغترون بالفائت عن الباقي والثابت.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/١٤)

والأمر الثاني: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: الشيطان[١] ولا يخدعنكم بالله خادع، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والغَرُورُ بفتح العين، هو ما غَرَّ الإنسان من شيء، كائناً ما كان، شيطاناً كان أو إنساناً، أو دنيا[٢] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتصديق كلماته، فإنه غَرَّار كذاب، وأفاك[٣] فلا يغرنكم الشيطان بالله عَزَّ وجل، فيزين فعل الباطل، والتمادي فيه، كأن يقول للإنسان: الأجل طويل، وتتوب فيما بعد، وهذا شيء بسيط يتجاوز الله تعالى عنك فيه، وأن الله تعالى يغفر لك، فافعل ذلك الذنب، وهكذا من أمور التغرير ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ فلا يغرنك بالله تعالى أي: نوعٍ، أو أي سبب من أسباب وأنواع الغرور. مما يُوجب الحذر من كل غرور يستهوي النفس، ويدفع الإنسان نحو الشهوات المحرمة، والشبهات الفاسدة، والتأويل الرديء، والإغراء المقيت.

فقوله تعالى ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ قوة مانعة إذا جعلها الإنسان في قلبه وباله، واستحضرها في كل موقف يدعوه إلى الغرور. فعندما يستدعيه داعي الشهوات له، يقول لنفسه محذراً لها ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وعندما يستدعيه الداعين للشبهات والخروج عن مراد الله تعالى، يصد دعوتهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وعندما يرى غيره اغتر أو اقترب من دوائر الغرور يعظه بقوله تعالى ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ فهي موعظة عظيمة الأثر في تقوية الإرادة أمام مغريات الدنيا التي لا حصر لها، ولا حصر لمواقع فتنتها: في المهنة، وأمام الناس، وفي الخلوات، وعند حصول النعمة، وعند القدرة على الباطل والفساد، وعند القدرة على إشباع الشهوات بالحرم، وأكل الحرام، وظلم الغير، وتحصيل التعالي والتباهي، والمفاخر الباطلة. فالحمد لله على نعمة مواعظه، وأساليبها، وتنوعها، وقوة أثرها وتأثيرها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن مكائد الشيطان بغروره ومصائده ومكائده، والتحذير منه، وبيان حقيقته مع الإنسان، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ تناولت الآية الكريمة المنهجية العملية في توقي الشيطان. فأول هذه المنهجية العظيمة هي:

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٥٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٥٨٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٥٥)

العلم بأن الشيطان عدو لكم ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ ﴾ أي: يريد هلاككم وإفسادكم. فإذا علمتم أنه عدو لكم، فمعناه أنه لن يدلكم إلا على ما يوقعكم في الشر، ومعصية لله تعالى، حتى تنحرفوا عن الصراط المستقيم، وتدخلون معه النار. كما أنه حثيث الخطى في أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء، ويزين لكم ما يُوقعكم في الشر، ويدفعكم عن الحق والخير.

والأمر الثاني: أن تتخذوه عدواً لكم ﴿ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فأنزلوه منزلة الأعداء من أنفسكم. مما يستوجب الحذر منه، واجتناب طاعته وموافقته. وأما معاداة الإنسان للشيطان فإنما تكون بلزوم عبادة الله تعالى، وعدم مجاراته، وعدم الغرور بما يكون منه، أي: فعادوه بطاعة الله عَزَّ وجل، وعدم مطاوعته وموافقته، والانخداع بغروره. مما يستلزم الحذر منه دائماً وأبداً.

والأمر الثالث: بيان منهجه وغايته وهدفه مع من يتحزب معه ويطاوعه ﴿ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي: أن الشيطان قد حصر نشاطه في دعوة أتباعه ممن شايعه وطاوعه ووالاه إلى المعصية والكفر بالله تعالى، من أجل أن يكونوا من أهل النار ﴿ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ من أجل أن يكون الناس من أصحاب جهنم، المستعرة بنارها. لأن الشيطان يعتبر جنس الإنسان عدو له. بل وردت أداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ لبيان أن جهده العملي منحصر على الدعوة بجميع الأساليب الشيطانية ليكفر عموم جنس الإنسان. وفي هذا بيان يكشف قوة مبالغته، وشدة حرصه على الانتصار على هذا الإنسان بإغوائه، وحرمانه من الجنة، وطرحه في النار. وفي هذا غاية البيان التحذيري، الذي بينه وجَلَّاه تبارك وتعالى، وأوضحه أحسن توضيح. وبقي على الإنسان اتخاذ الشيطان عدواً له، والبعد عنه وعن خطواته، والحذر من غوايته، وطرقه من التزيين والاغراء بالفواحش والكفر، وجميع أنواع المعاصي التي تُوجب غضب الله تعالى وسخطه.

ثم يخبر الله تعالى بالنتيجة والمحصلة لمن كفر به سبحانه وتعالى، وكذلك لمن آمن وصدق وأطاع ربه عَزَّ وجل. فقال جَلّ في علاه ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ فلما أن الله تعالى ذكر سابقاً عداوة الشيطان للإنسان، ودعائه لمن شايعه واتبعه إلى ما يوقعهم في النار، فيصبح الناس بعد ذلك فريقين، فريق مطيع للشيطان، وفريق مطيع للمرسلين من الله العزيز الرحمن، أوضح جَلَّ جلاله حال الفريقين ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ فالذين اتبعوا الشيطان، فكفروا بالله عَزَّ في علاه ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ فلهم عذاب قد اتصف بالشدة والغلظة التي لا تنفك عنهم أبداً. وأما

الفريق الآخر ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ وهم الذين اتصفوا بصفتين: الأولى: تحقيقهم للإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صدقوا المرسلين، وما جاؤوا به من عند الله تبارك وتعالى، فامنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر، خيره وشره، وبالجنة والنار، والحساب والجزاء. وجمعوا مع ذلك الصفة الثانية: وهي: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهو التطبيق العملي لشريعة الله تعالى، كما جاء بها المرسلون، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ يمحو الله تعالى ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ويتفضل عليهم بالثواب العظيم، الذي هو دخول الجنة التي عرضها السماوات والأرض. وبهذا قد أوضح تبارك وتعالى حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، وغرور الدنيا، وغرور الشيطان، وأثرهما على مسيرة الإنسان ومسلكه وهداه، وأوضح مصير الإنسان بعد فناء الدنيا وزوالها، والانتقال إلى الحياة الآخرة. فبذلك قامة الحجة، وبقي على الإنسان مسؤوليته عن نفسه، فمن أطاع ربه دخل الجنة، ومن عصاه بالكفر دخل النار.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى افتراق الناس إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، وأسباب ذلك، من مطاوعة الغاوين للشيطان. ومطاوعة المؤمنين للرحمن باتباعهم المرسلين، ومخالفتهم للشياطين، يخبر بعد ذلك سبحانه وتعالى بأسلوب الاستفهام الاستنكاري عن الحال التي تؤدي بالإنسان إلى الهاوية، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ هل يستوي الذي زَيَّنَ له الشيطانُ وهواه أعماله السيئة، كمن ليس كذلك؟ فهداه الله تعالى ووفقه، فرأى الحسن حسناً، والسيء سيئاً كما هو على الحقيقة. فلم ينخدع بتزيين الشيطان له سوء العمل، ولم يغتر بغرور الدنيا. فهو بيان عظيم بأسلوب المقارنة بين صنفين، وقد اكتفى البيان الكريم بأحدهما، ولم يذكر الصنف المقابل وذلك لظهوره من دلالة المضاد، والاستغناء عما لا حاجة لإظهاره، كما أفاد ذلك المبالغة في إظهار وإبراز هذا الصنف الذي رأى سوء عمله حسناً. وقد أبرزه قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فأظهر هنا الفريقين في النتيجة. وهذا من بلاغة الأسلوب وقوة السياق، وإعجازه في بيانه وحقائقه. فسبحان الله العظيم

وقد ورد سياق ذلك بدقائق من البيان الجليل العظيم. فقد ورد بأسلوب الاستفهام الذي يستنكر من يرى الحسن في العمل السيء، ويرى السيء أنه في العمل الصالح الواضح. وهو أيضاً سؤال يقرر به حقيقة نوع من الناس، يرون سوء العمل حسناً. كما ورد البيان الكريم بعدم ذكر الفاعل للتزيين ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ ﴾ فلم يذكر من قام بالتزين، الذي قبل به هذا الإنسان، ليشمل جميع المؤثرات، من هوى النفس، وهوى الشهوات،

وهوى الشبهات، ومسايرة الكبراء الفاسقين، ومطاوعة أهل الفساد، والغرور بشهوات الدنيا، وكذلك تزيين الشيطان له، فَقَبِلَ التزيين الباطل، وجذبه عن الحق الواضح. وقد سَمَّى تبارك وتعالى ذلك العمل بالسوء ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ مما يدل على ظهور السوء وبيانه وتَجَلِّيه فيما كان يعمله من الشرك، والكفر وغيرها من المعاصي، بل ونسب العمل إلى فاعله، ولم ينسبه لمن زينه له ﴿ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ لأنه هو المسؤول عن نفسه، وعن الاختيار، وعن الأخذ والاتجاه، بما حباه الله تعالى من العقل ومن الإرادة. بل أكّد ذلك بالرؤية التي حصلت منه لذلك العمل السيء ﴿ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ فرأى عمله السيء أنه من الأعمال الحسنة، فأضفى عليه الحسن من أجل أن يعمل به.

بينما المؤمن لا يرى الأمور والأعمال إلا كما هي على حقيقتها. فلا ينخدع، حتى وإن أذنب يرى أن ذنبه كالجبل، ولا يرى فيه الحسن أبداً. فيعود مباشرة للحق، ويتوب ويستغفر ربه تبارك وتعالى. وبهذا التفصيل الدقيق، يكون قد أوضح تبارك وتعالى للعباد الحقائق كما هي. كما ظهر الإعجاز البياني في عظمة السياق، ومبناه الرائع في تراكيب كلماته، ودلائل مبناه، وقوة فصاحته، وعظيم شموليته في الكمال والاستيفاء للمقصد والمراد.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى تقرير مشيئته وعظيم قدرته سبحانه وتعالى، بإظهار وبيان أن ما يحصل من كفر معاصي ليس بخارج عن مشيئته عَزَّ وجل، فلو شاء لمنع ذلك الذي زُيِّن له سوء عمله مما كان منه، ولكن ليجزي كل إنسان بما كان منه، فقال تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فإن لله تعالى حكمة فيما يشاء ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى يُضل من يشاء، فلا يمنعه عما هو فيه من الضلال، حتى يكون عقابه وفق ما اختار من الباطل، وما تركه من الحق، وأن فعله لا يعني انتفاء قدرة الله تعالى على منعه، فإن مشيئة الله تعالى كائنة على كل شيء، وبالمقابل ﴿ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فإن الله تعالى يهدي ويوفق من أراد طاعة ربه، فيسدده، ويعينه ويوفقه، ولو شاء لما وفقه، ولكن أعانه لأنه جاء إلى ربه مطيعاً، لأن من تقرب إلى الله تعالى شبراً أو ذراعاً قابله الله عَزَّ وجل بأعظم من ذلك تقريباً وتسديداً، كما جاء في الحديث القدسي (إذا تقرب العبد مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً) [1] مما يبين أن من اختار الهداية والهدى وفقه الله تعالى، وربط على قلبه، وأعانه ووفقه. ومن حاد عن الله تعالى وعن طاعته أضله الله تعالى بما كان منه. وله سبحانه وتعالى المشيئة الكاملة، فإن أراد أن يهدي الضال هداه، وأجبره، فإنه لا معقب لحكمه سبحانه وتعالى. فربنا يعلم ما لا يعلمه العباد، وهو أرحم الراحمين. فلا أحد يحكم على الله تعالى، بل هو الحاكم الذي له الحكم المطلق بلا قيود ولا شروط، وما ربنا بظلام للعبيد.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٤١٤) برقم (٧٥٣٧)

وقال الله تعالى في سورة الرعد ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المغرورين، أن الضلال بمشيئة الله تعالى، فليس هو خروج عن مشيئته، وقدرته، وأنهم بكفرهم هذا مستعصين عليه جَلَّ جلاله. فلو شاء لألزمهم بالإيمان وهم كارهون، وكذلك فإنه ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي: بمشيئته، فيهدي إلى الحق الذي هو الإسلام من رجع إليه سبحانه وتعالى بالتوبة والإقلاع عن الكفر. فلو شاء تبارك وتعالى لمنع الهداية عنهم، ومنعهم عن الهداية. وقد نسب الله تعالى الهداية إليه جَلَّ جلاله ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أي: إلى جنابه عَزَّ وجل، فإن من اهتدى بهذا الدين، فقد تمثل بحظوة جناب الله تعالى، وفي هذا غاية التكريم أن نسبهم الله تعالى إلى جنابه. وقد جعل الله تعالى للإنسان إرادة في الاختيار ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ فالإنابة من العبد إلى الله تعالى، وهي أن يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والطاعة. وكل من أناب إلى الله تعالى هو بتوفيقه ومشيئته، فلا شيء يخرج عن مشيئته، فلو شاء غير ذلك لألزم العبد به. فقد جعل للعبد حرية الاختيار التي لا تعني الخروج عن مشيئته.

فإن الله سبحانه وتعالى كلف كل نفس بالطاعة، ونهاها عن الكفر، وزود كل نفس بما تتمكن به من ذلك، فقد ألهم سبحانه وتعالى كل نفس فجورها وتقواها، كما في سورة الشمس، فقال تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. فإن مشيئة الإنسان واختياره مِنحَةٌ من الله تعالى لجنس الإنسان، حتى يستوفي كل إنسان ما اكتسب من الطاعة أو المعصية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما أوضح وبين ذلك سبحانه وتعالى في سورة التكوير، فقال تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويُعَلِّمهم سبيل الحق والرشاد، حتى يعرفوا ما يجب عليهم، وما يكون منهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته عَزَّ وجل، فالجميع تحت قبضته جَلَّ في علاه. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم.

ومع ذلك فإن الله تعالى له كامل المشيئة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ وقد أكد تبارك وتعالى في سورة فصلت كمال عدله في الجزاء، ونفى أن يظلم أحداً من عباده. فقال جَلَّ شأنه ﴿ مَّنْ

عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ من عمل الصالحات التي أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بها، وذلك باتباع دينه كما شرع، فإن عمله وثوابه عائد عليه، فيكون قد مهد وهيأ لنفسه بما يجازيه الله تعالى به من الفضل. ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفۡسِهِۦ ﴾ فإن خير وثمرة ذلك العمل الصالح له وليس لغيره، فقصر الاستفادة التي يبذلها عليه، فثمرة وثواب جهده من الطاعة له. وأما ﴿ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ﴾ ومن أساء بترك الدين، أو أخل به فإن ضرر وجزاء ذلك عليه، فلن يتضرر به أحد غيره. فيكون الجزاء مقصور عليه. لإفادة أن كل نفس بما كسبت رهينة بخيرها أو شرها. فانتبهوا أيها العباد لشؤونكم ومصالحكم في الدنيا والآخرة.

وأخبر عَزَّ وجل في سورة فصلت عن كمال عدله، وانتفاء الظلم منه سبحانه لعباده أبداً ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فلا يظلم ربكم أحداً من عباده. فوصف تبارك وتعالى قضاءه بكمال العدل. فلن يظلم ربكم أحداً من العباد، فلن يزيد سيئة أو يُنقص حسنة، فكل نفس بما كسبت رهينة. ولن يجازي أحداً بما لم يكتسب. بل يوفي كل نفس بما كسبت. فلن يعاقب أحداً إلا بذنبه الذي اكتسبه. مما يفيد أن عمل العباد هو مناط الحكم.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بحقائق الهداية، وحدود مسؤوليته فيما أرسله به من الرسالة، بأن الله تعالى لم يكلفه بما ليس له فيه قدرة وإرادة ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ فلا تتأسف وتتحسر يا أيها النبي على من ضل عن هُدى الله تعالى ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تغتم، ولا تُهلك نفسك حسرة على تركهم الإيمان[1] فلا تهلك نفسك حزناً عليهم وعلى مصيرهم. بما يفيد إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم. مما يدل على أن كل نفس تتحمل مسؤولية نفسها، كما يدل ذلك على قوة شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس، وأن بوده لو آمن كل من تبلغه رسالته، ولكن لله تعالى الحكمة البالغة، فلو شاء لهدى الناس جميعاً، ولكن لكل امرئ ما اختار واكتسب.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى علمه بهم، بل وبدقائق ما يصنعون، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ فإن الله تعالى عليم بما يصنع هؤلاء من الذين رأوا الحسن في سوء أعمالهم، فهو محصيه عليهم، ومجازيهم بما يستحقون. فإن الله تعالى عليم بما كان ويكون منهم من أعمال، فيعرف ما يصنعون، وما انطوت

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٤٧)

عليه نواياهم، وبالتالي فاتركهم لربك عَزَّ وجل، يدبر أمرهم بما يشاء من التدبير. وفي ذلك ترهيب ووعيد وتحذير لهم مما هم عليه من الشرك.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ
(٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ
وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى عرض مظاهر قدرته سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح، ليرشد العباد إلى ألوهيته وربوبيته، ووحدانيته عَزَّ وجل، وأنه المالك المتصرف في الكون وحده لا شريك له عَزَّ في علاه، وبما يثبت لهم البعث والنشور بعد الموت، فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ يقرر اللهُ تبارك وتعالى لعباده أنه هو الذي يرسل الرياح لتحريك السحاب، وانتقاله من مكان إلى مكان آخر، فإنه هو الله ربكم تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ فهو الذي يُرسل الرياح لتحمل هذا السحاب وتنقله من مكان لآخر، بحسب مشيئته وتوجيهه لها عَزَّ وجل.

والإثارة ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ بمعنى: التحريك للشيء، وسوقه من مكان لآخر، فهي تحركه جمعاً ونقلاً وتفريقاً للسحاب، فتنقله بالسَّوق من مكان لآخر، وتفرُّقُه بموجب ما قدره الله تعالى لتلك الأرض من قليل أو كثير. وقد حصر سبحانه وتعالى لذاته العظيمة ذلك التدبير بالسَّوق والإثارة للسحاب. فتنشر الرياح السحاب، وتوزعه، وتسوقه، فَيَجمَعُ الله تعالى السحاب ويَمُده ويبسطه وذلك بأمره للرياح أن تنقله من مكان لآخر، ليحدث السوق والبسط؛ بمده وتوسعة مساحته بعد جمعه. فهناك إثارة، وهناك سوق للسحاب، فالإثارة للنشر،

والسوق للجمع والمد والتوسعة والنقل ﴿ فَسُقْنَٰهُ ﴾ أي: نقلناه. وهذا من دقائق البيان، لأن السوق يحمل التوجيه للمَسُوق، والطواعية في الاتجاه، وفي كل شأن، بما يفيد أنها عبد لله تعالى، وأن الرياح السائقة للسحاب عبد لله تعالى. فعبد يسوق عبد، ويأمر فيأتمر. فيا أيها الإنسان اعتبر بهذه الطاعة، فالجميع عبيد وجنود له عَزَّ وجل. فهي عملية غاية في إظهار القدرة العجيبة لمن تأمل في إثارة السحاب، وسوقه، وبسطه، وجريانه في الطبقات العليا، ثم تجميعه بالسوق له، ثم مده وبسطه لتوسعة مساحته على المكان الذي قضى وأمر جَلَّ في علاه أن ينزل فيه المطر. فسبحان الله العظيم.

وقد أسند سبحانه وتعالى سوق السحاب له عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ فليس لأحد غيره شيء من التدبير في ذلك، فإنه حصر وقصر تدبيره عليه عَزَّ وجل. ليفيد أنه هو الذي يرزق، وهو الذي يمد بالعطاء، وهو المدبر. فيجعله بالكيفية والهيئة التي يريدها عَزَّ وجل، فقد يكون سحاباً كثيفاً، فيكثر فيه السواد لغزارة تجمعه، وإن شاء جعله خفيفاً، وإن شاء جعله متناثراً، فيمطر بعضه، ولا يمطر بعضه، وإن شاء جعله في جهة دون جهة، ليدرك الإنسان في ذلك عظيم سلطانه، وتدبيره، فيسوقه كما يسوق الأرزاق بين العباد. مما يُوجب تسبيحه وحمده، وتوحيده، وتعظيمه، وطاعته بعبادته وحده لا شريك له، وتنزيهه عن الشريك، وعن كل نقص وعيب. سبحانه جَلَّ جلاله.

ويخبر الله تعالى أنه هو الذي يحي الأرض بعد موتها بهذا التدبير من الإثارة والسوق للسحاب، ثم إنزال المطر﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فتثير هذه الرياح التي تتحرك في الفضاء بأمره وحكمته، لتنقلها بإرادة ربها سبحانه وتعالى إلى البلاد الميتة ﴿ فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ مما يوجب التأمل والتفكر في رحمة الله عَزَّ وجل بعباده، إذ جمع السحاب وساقه لهم بالرياح، ثم أمر فنزل المطر ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فعادت الحياة للأرض بعد أن كانت ميتة بالجفاف، فَدَبَّت الحياة في الأرض بظهور الأعشاب والزروع المختلفة، فتصبح مخضرة بالحياة والانتعاش؛ بعد أن كانت جافة ميتة لا حياة فيها. فإنها آية في البعث والنشور بعد موت الإنسان ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ وبمثل ذلك يكون البعث والنشور. فهي حالة مماثلة لما سيكون عليه الإنسان من الحياة بعد موته وهلاكه، فالذي بقدرته أحيا الأرض بعد موتها، فإنه بقدرته إحياء الإنسان بعد موته. وبمثل هذا الإحياء للأرض بعد موتها يكون الإحياء والبعث للإنسان من القبور، فيعيدهم للحياة كما بدأ خلقهم من قبل، ليحاسبهم ويجازيهم، كلاً بما قدم.

ففي هذا تعليم للعباد بالاستنتاج والقياس، فهو استنتاج وقياس وتعليم منه سبحانه وتعالى بآياته الكونية على الأمور الغيبية، بما يُوجب على الإنسان أن يؤمن بالغيب، فهو تعليم بأدق مجريات الكون ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ فإن في آيات إحياء الأرض بعد موتها لعبرة وموعظة وبيان لكيفية النشور، مما يستوجب على الناس أن يُعمِلُوا عقولهم بالتفكر والتأمل، والقياس بما يرون على ما لا يرون، من البعث بعد الموت، والحساب، والجنة والنار. فإن هذا من دلائل قدرته عَزَّ وجل على كل شيء سبحانه وتعالى. مما يبين أن منهج الإسلام في تعليمه ودعوته ومواعظه وعبره قائم على الحقائق التي لا يزيغ عنها إلا معاند ومكابر، فَيُهلِك نفسه بالكفر والطغيان والعصيان. وهو منهج عظيم في طرائق التعليم، من خلال تعليم الإنسان مبدأ وأسس التعليم بالقياس والاستنتاج.

وهي آية متعلقة بعدد من الحواس، إذ تثيرها جميعاً في وقت واحد، وهذا من عجائب ودلائل قدرة الله تعالى. فهناك حاسة النظر، بما تراه من السحب والبرق، فيستثيرها، وما يتبعه من الرعد، فتتشنف الآذان عند سماعه، مع هيبة وخوف ووجل وطمع، بما يثير قوة القلب، ليكون حاله بين الخوف والرجاء والطمع، وما يتبع ذلك من سرور القلب بما يرى من الغيث، وما ترى العين من نزول الماء من السماء، وما تستطيبه الآذان من سماع سقوط حبات المطر، وما يكون من الماء على الأرض، وما تترقبه وتأمله من حياة الأرض به بعد موتها. فإنها آيات متعددة يكشفها الله تعالى لعباده، ليتعظوا بها، فيقروا بالبعث بعد الموت، لما يرون من كمال قدرته سبحانه وتعالى في إحياء الأرض بعد موتها، بل إن في تكرار الإحياء للأرض، بعد تكرار موتها ما يقرر وحدانية وألوهية وربوبية وسلطان الله عَزَّ وجل. فيستوجب ذلك أن يؤمنوا ويطيعوا ربهم، ويسبحوه ويشكروه.

ثم يخبر الله تعالى بما يعالج ويهذب طمع وشغف الإنسان في تحصيل المكانة والمنزلة والرفعة، ويبين له المنهجية الصحيحة في ذلك، بما يحقق له الخير في الدنيا والآخرة، فيقول ذو العزة والجلال ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ من كان يطمع ويتشوف للعزة والمكانة والرفعة، فإنها مُلك لله عَزَّ في علاه، وبالتالي فاطلبها منه بطاعته والامتثال لأمره ونهيه عَزَّ وجل، ولا تبحث عنها عند غيره، فلا تبحث عنها في ذوات الأشياء من المخلوقات، فكم من صاحب مال لم يحصل بماله على مبتغاه، وكذلك كم من طالب للرئاسة والجاه، فلم يحصل على ما وراءها من مبتغاه، فلم تَشْبَع بها نفسه، ولم يتحقق بها مراده، لأنها عطاء من الله تعالى، فيجعلها في قلوب من يشاء من الناس، لأنه مالكها سبحانه وتعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فمن كان راغباً فيها فليعلم هذه الحقيقة ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ وقد أسند مُلكَها له عَزَّ وجل، كما جمع جميع أنواعها جميعاً له تبارك وتعالى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ مما يفيد اطلبها بطاعته جَلَّ جلاله، والامتثال له، فهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وهي تفيد كذلك أن من أراد أن ينازع الله تعالى في عزته، فإنه مهان ومكسور ومخذول، لأنها ملك له تبارك وتعالى. وتفيد كذلك ما قاله مجاهد رحمه الله تعالى: من كان يريد العزة بعبادته الآلهة فإن العزة لله جميعا. وقال قتادة رحمه الله تعالى: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله تعالى. وقال آخرون: من كان يريد عِلم العزة، لمن هي؟ فإنها لله جميعاً. فكل وجه من العزة فهو لله تعالى[١] فأعطى سياق هذه الآية وبناؤها هذه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٢/١٨)

الأفهام التي توضح أن العزة لله جميعاً، وأنه هو الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ومن يطلبها من عند غير الله عَزَّ وجل فقط حاد عن الطريق. وأن المؤمن يحصل عليها بالتزام طاعة ربه تبارك وتعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن منتهى جميع الأقوال الطيبة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ فإليه سبحانه وتعالى وليس لغيره يصعد جميع الكلام الطيب، الذي طاب بذكره سبحانه وتعالى، ومنه إحقاق الحق وإزهاق الباطل، بما يفيد القبول والرفعة لجميع الكلام طيب، وأن له المنزلة الرفيعة عند الله عَزَّ وجل، كما يفيد الترغيب في الكلام الطيب. وقد دل صعود الكلم الطيب إلى الله تعالى على عظيم ثوابه ومنزلته وقدره ومكانته عند ربنا عَزَّ في علاه، فليتعاهد المؤمن ذلك في حياته، ويربي ويعود نفسه عليه.

ولم يقصره تبارك وتعالى على نوع دون نوع، بل يشمل كل كلام طيب من غير تخصيص ولا تحديد، إذ لم يخصصه عَزَّ وجل في نوع أو أنواع محددة، بل ورد مطلقاً ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ فأعلاه ذكر الله تعالى، كقراءة القرآن الكريم، وتوحيده، بقول: لا إله إلا الله، والتسبيح والتكبير والتحميد، وجميع مفردات الذكر، ومنه كذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه أطايب الكلام مع الناس. فهو يجمع ما لا حصر له من الكلام الطيب، ومواقعه ومقاصده.

وكما أن الكلام الطيب يصعد إلى الله تعالى بالقبول فإن العمل الصالح يرفعه إليه تبارك وتعالى كذلك فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فيرفع الله سبحانه وتعالى العمل الصالح إليه، ليدل على مكانته ومنزلته ورفعته عند ربنا تبارك وتعالى، كأداء الفرائض والواجبات والسنن، والإحسان بأنواعه، والأعمال الصالحة فيما يخص عبادة الله تعالى، أو ما يخص تطبيق شريعته عموماً، ومنها ما يكون مع الناس، ومع الحيوان في تعاملاته. واجتناب المحارم. فإن الله عَزَّ وجل يرفع الأعمال الصالحة بالقبول والثواب لصاحب العمل الصالح. وهو العمل بطاعته وفق شريعته عَزَّ وجل.

ومن مزيد المعاني أن كلمة ﴿يَرْفَعُهُۥ ﴾ تجمع ثلاث دلالات كما نقلها ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وبعض أهل التفسير: أحدها أنها ترجع إلى الكلم الطيب، فالمعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، قاله ابن عباس والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد والضحاك. وكان الحسن يقول: يُعرض القول على الفعل، فإن وافق القول الفعل قُبِل. وإن خالف رُد. والثاني: أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، فهو عكس القول الأول. وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب. فإذا قلنا: أن الكلم الطيب هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول: أنه لا يُقبل عمل صالح إلا من مُوحِّد. والثالث: أنها ترجع إلى الله عَزَّ وجل،

فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الله إليه. أي: يقبله. قاله قتاده[١] وهذا من بلاغة السياق الكريم، الذي جعل سياق البيان يستوعب تلك المعاني والدلالات، وجميعها متضافرة، لا تضاد بينها، فالعمل الصالح يرفع الكلام الطيب بالقبول، لتضافرهما معاً. وكذلك العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، وهو تحقيق الإيمان بتوحيد الله تعالى لفظاً وعملاً. وكذلك فإن الله تعالى هو الذي يرفع العمل الصالح بالقبول والإثابة عليه. فجميع المعاني متضافرة، فإن في إثبات أحد الأقوال لا ينفي الآخرين، بل إن جميع معانيها متظافرة، ثابتة. وهذا من غزارة البيان وإعجاز سياقه بتراكيب ألفاظه. فسبحان من أظهر أعجاز بيانه في تراكيب وتراتيب كلامه، ودلالاته المتظافر، والمتعاضدة وغير المتناقضة.

ثم يخبر الله تعالى عن النوع المضاد لقول الكلم الطيب والعمل الصالح، وهم أصحاب السيئات القولية والعملية، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ ﴾ فالذين ﴿ يَمۡكُرُونَ ﴾ أي: يعملون ويجترحون السيئات، بتدبير الضرر، من أجل الحاقه بغيرهم، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجعلون ذلك الفعل السيء خفية، حتى لا يتوقاه ويحذره مَن قُصِد بالضرر. ليشمل بذلك كل صاحب مكر سيء، ومنهم الذين مكروا بالرسول صلى الله عليه وسلم في دار الندوة، والمنافقون، وأصحاب الرياء، الذين يظهرون خلاف ما يبطنونه ويخفونه، فيتظاهرون بالطاعة لله تعالى وهم يريدون أن يحققوا بها مراداً آخر من السيئات، فهو شامل لجميع أعمال السيئات وأنواعها، وأعمال الشرك.

فهؤلاء ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ ﴾ من الله تعالى، فهو عذاب شديد في قوته أثره عليهم، جزاء بما كان منهم. مما يدل على خطورة المكر السيء. ثم قال تعالى عنهم وعن مكرهم ﴿ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي: أن الله تعالى يُبطل خداع ومكر أولئك الماكرين ﴿ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي فاسد وكاسد، فلا رواج له، كما أنه معدوم الأثر، لأن الله تعالى توعد بإبطاله وإفساده. مما يفيد أن خطر المكر السيء بالغير يعود على صاحبه عاجلاً أو آجلاً، مما يُوجب الانتباه والحذر منه، وتجنبه، فإن نتائجه ووباره وعوائده وآثاره راجعة على صاحبه ولو بعد حين.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٤٨-٢٤٩)

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان حقيقة خلق الإنسان وأطوار تكوينه، وعظيم علم الله عَزَّ وجل بمراحل وأطوار حياة هذا الإنسان، وأنه هو الذي يدبر حياته، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فإن قدرته سبحانه وتعالى تبين أنه على كل شيء قدير. فهو شأن وأمر واضح أيها الناس في أطوار وانتقال خلقكم من طور إلى طور، فإن في أنفسكم من الدلائل ما يدل على كمال قدرته سبحانه وتعالى، وعظيم تدبيره. فإن كنتم مخالفين للحقيقة من الإيمان والتصديق والطاعة التي يلزم في الأصل أن تكون ثابتة في نفوسكم، فإليكم الأدلة والبراهين التي تتعايشون معها، وتعرفونها ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ فإن كنتم في ريب وشك وانعدام لليقين من البعث فتأملوا سنن خلقكم التي يزول بها ريبكم وشككم.

فتأملوا أولاً: أصل خلقكم ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فإن أصل خلقكم الأول من تراب، بناء على أصل خلق أبو البشرية آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى من التراب. فأعادهم سبحانه وتعالى بذلك إلى الأصل في خلق أبيهم آدم، بأنه خُلِقَ من التراب، ثم خلق زوجه حواء منه، ثم خلق أولاده منهما، فإنه عَزَّ وجل أعاد الْمُخَاطَبِين إلى أصلهم الأول، وهو التراب. وهو الأصل الذي يدل عليه ويؤكده تحول أجسام بني آدم عند دفنهم إلى تراب، والذي يمثل الأصل الأول له، فإن هناك تجانس في الحقيقة بين مادة أصل جنس هذا الإنسان، وبين ما يتحول إليه رفاته، والتي يؤكد بعضها بعضا حقيقة أصل جنس الإنسان أنه من تراب. وهذا من دقائق الإعلام والتفهيم، بأن يبدأ تعليم الجاهل من أصل المعرفة، ثم الترقي معه وبه إلى ما هو أعلى.

ثم يترقى بهم سبحانه وتعالى في التعليم إلى ما يعايشونه من أطوار الخلق، فيبين عَزَّ وجل المرحلة التالية لخلق الإنسان في رحم الأم ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي: من مني، وسمَّاه سبحانه وتعالى نطفة لقلته، إذ

هي قطرة صغيرة. فجعلها بقدرته عَزَّ وجل تتخلق في أطوار ليكون منها الإنسان. فهو إيجاد بعد العدم من تلك النطفة المائية القليلة في تكوينها. وبالرغم من صغر حجمها وضعفها فإنها تتحول في أطوار حتى يخرج الإنسان من بطن أمه سوياً، لحماً وعظاماً.

ثم ينتقل إلى التزاوج الذي يكون منه تلك النطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وهو بهذا الخلق جعلكم أزواجاً. وهي تشمل دلالتين: أحدهما: وهو الفرد الذي يصير بانضمام غيره إليه زوجاً، ويشمل بذلك أن يجعلكم من هذه النطفة ذكوراً وإناثاً. والدلالة الثانية: فَزَّوج بعضهم ببعض. فالمقصود والْمَعْنِيُ به ما يخص زواج الرجل من الأنثى، وبالتالي تشمل دلالة ﴿أَزْوَاجًا﴾ ذكوراً وإناثاً، إضافة إلى تزويج بعضهم ببعض. فمن الذي سخر هذا لهذا؟ ورَغَّب هذا في هذا؟ واجتمعا في بيت واحد، وخلق منهما أزواجا؟ أليس هو الله تعالى، الخالق المدبر، الذي يجب أن توحدوه وتطيعوه، وتُطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءكم به من الحق والدلائل والبراهين.

ثم يتدرج في البيان إلى قضية الحمل، وأطوار الإنسان المتعاقبة ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فلا يكون حمل، ولا وضع بالولادة إلا وأن الله تعالى مدبره وعالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره عَزَّ وجل. بل ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وما يطول عمر أحد من عباده، ولا ينقص من عمره شيء ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ. فلن يطول ولن يقصر وينقص من عمر معمر إلا بما كتب الله تعالى له في اللوح المحفوظ، ولن يموت مخلوق دون اكتمال بعض مراحل عمره إلا بما كُتِبَ له في اللوح المحفوظ. فكل يستوفي عمره الذي كُتب له في اللوح المحفوظ. وما تلك الأسباب التي تحدث لتكون السبب الظاهر في موته إلا وقد جاءت في وقتها، فلم تسبقه ولم تتأخر عنه. مما يلزم المؤمن أن يطمئن على ما يصيبه من مرض، وأسباب، من أنه لن يموت حتى يستوفي أجله المكتوب له في اللوح المحفوظ.

ثم يخبر الله تعالى بأن ذلك الأمر والشأن في التدبير إنما هو هين ويسير عليه سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما أشير إليه سابقاً من الخلق والتكوين، وكتابة الآجال وتحديدها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فهو هين ميسور على الله تعالى، فقد انتفت منه الصعوبة، فليس ذلك الأمر إلا في يسر وسهولة على الله خالق الكون ومدبره، لأن ربكم خالق كل شيء، ومدبر كل شيء، فلا يعزب عنه شيء أبداً، وهو سهل يسير على الله تبارك وتعالى. وفي هذا تجلية وتوضيح للعباد عن عظيم قدرته، وكمال تدبيره جَلَّ جلاله، وأن الأمور كلها عنده يسيرة وسهلة، فهو يأمر بالشيء، فيكون كما أمر، من غير زيادة ولا نقصان. مما يعلم العباد ما هو

واجب عليهم تجاه ربهم من الطاعة والامتثال والتقديس والشكر والامتثال. والإيمان بالبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ويتدرج البيان الكريم إلى آيات تدبيره سبحانه وتعالى في البحار التي سخرها للإنسان، وجعل فيها ومنها ما يأكلون، وما يتزينون به، وما ينتقلون به من مكان لآخر، عبر السفن المتعددة في أحجامها وأشكالها، وما يلحقها من التطوير والتحديث عبر الأزمان، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقارن الله تبارك وتعالى لعباده بين ما خلق لهم من البحار المالحة، وبين الأنهار العذبة، بما يلفت انتباههم إلى عظيم إنعامه عَزَّ وجل عليهم، وعظيم تدبيره لما خلق من المياه ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ لا يستوي ولا يتساويان ولا يتفقان من حيث عذوبة ماء الأنهار، وملوحة ماء البحار، ولا يستويان في الحجم والكثرة، ولا في تعددها، ولا فيما تعطيه من أنواع المياه.

فبدأ البيان بنفي الاستواء، وإثبات الاختلاف، بما يشد الانتباه إلى متابعة البيان، فالنوع الأول: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ هذا النوع من البحار، الذي يعني به الأنهار ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، والحلاوة، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني بالعذب الفرات: مياه الأنهار والأمطار، وبالملح الأجاج مياه البحار[1] ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ هذا البحر الذي اتصف ماؤه بالحلاوة ﴿فُرَاتٌ﴾ والفرات أعذب الماء، لشدة حلاوته ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ سهل الانحدار في الحلق من عذوبته وطيبه، أي: يستطيبه الشارب منه ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بينما هذا البحر قد اتصف ماؤه بالملوحة ﴿مِلْحٌ﴾ المختلط بالمرارة ﴿أُجَاجٌ﴾ والأجاج: المالح، المختلط بشيء من المرارة، لشدة ملوحته. ومع هذا التنوع وهذا التغاير والتضاد جعلكم تستخرجون منها ما تأكلونه من اللحم ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فتأكلون من كلا البحرين لحماً، بالرغم من تفاوتهما في طعم الماء، بل وتضادهما ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ والآخر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وفي هذا لفت الانتباه إلى الإعجاز في اختلاف الأصل مع التوافق في المأكول، فتأكلون منها ﴿لَحْمًا

---
(1) الطبري، المرجع السابق (٤٧٣/١٧)

﴿طَرِيًّا﴾ لحماً ليناً غضاً، وهو السمك، فاتصفا بصفة واحدة، وهو أنه لحم، وأنه لين وغض من طراوته. فإنه أمر يستثير التأمل والتفكر في قدرة الخالق سبحانه وتعالى، مما يدل على أنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير. فإن من صفات أسماك البحر التي تصطادونها أن لحمها طري، أي: رقيق لطيف، وفي ذلك إرشاد العباد إلى رخاوته، وأنه امتنان من لدنه سبحانه وتعالى به لعباد، بما يفيد أن طبخه لا يحتاج مشقة ولا وقتاً طويلاً.

وكذلك مما سخره ربكم لكم في هذا البحر استخراج الحلية التي تتزينون بها، أو تُزينون بها ما تريدون من أشيائكم ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتستخرجون من كلا البحرين ما تلبسونه من الحلي والزينة، فتتحلون وتتجملون بها في أنفسكم، أو إلباسها لممتلكاتكم، وهي اللؤلؤ والمرجان، وغيرها مما في البحار من الزينة. وفي هذا إشارة إلى أن دين الإسلام هو دين جمال وتجمل، وأن التجمل أمر يتناسب ويتوافق مع الطبيعة البشرية والفطرية، وأن الله تعالى بشرعه وتشريعه القويم لا يمنع ولا يُزّهد في الحلية والزينة بالقدر المشروع، الذي شرعه الله تعالى في دينه، وأن هذا الدين لا يحارب الفطرة البشرية التي فطر اللهُ الناسَ عليها، وإنما يضبطها في مسلكها بما شرع.

ومن لطائف البيان ودقته أن كلمة الاستخراج للزينة، وردت بصيغة الكثرة والتكرار ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ التي تبين وتنبه الْمُخَاطَب إلى أن تحصيلها متصف بالكثرة التي لا تنتهي ولا تنقص مهما أخذتم وجمعتم منها، لتغطي وتلبي حاجتكم المستمرة التي لا تنقطع، بما تستخرجونه من البحر، ومع ذلك فهي مسخرة، ومتيسرة لكم، فيمكنكم تحصيلها بِسُبُل التحصيل، وإن إيجادها وخلقها هو من أجلك أيها الإنسان. كما يدل صياغة الفعل ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ على الاستمرار في الاستخراج، بما يدل ويفيد على كثرة الحلية التي في البحار، وأن تكرار استخراجكم لها لا يُنقِصُها، وبالتالي فإنها لا تنتهي بأخذكم منها، فإن استمرار الخلق والإيجاد مستمر. وهو نعمة وآية من الله تعالى وفضل. فإن في هذا البيان من الله تعالى ما يستثير ويسترعي الانتباه والفكر إلى عظمة الخالق، وكثرة إنعامه على عباده، وعظيم خلقه وتدبيره، والموازنة بين الحاجة ووجودها. وكل ذلك يلزم منه توحيد الله تعالى وعبادته محبة له عَزَّ وجل، وخوفاً من عقابه.

ثم يَلفِتُ تبارك وتعالى نظر العبادِ إلى التأمل في السفن، أثناء إبحارها فوق سطح البحر، إذ طَوَّع وذلل البحر لتلك السفن، فسارت فيه متنقلة من مكان لآخر بكل يسر وسهولة ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ فقد أورد تبارك وتعالى النظر والتأمل بكلمة ﴿وَتَرَى﴾ والتي تفيد الاستمرار والتعاقب، بأنها محطة ومكان للأنظار التي يتحقق بها نظر البصر في آية تسخير البحر لتلك الفلك التي تجري فيه، ثم لينتج عن هذ الرؤية البصرية رؤية البصيرة بالتأمل والتفكر في هذا التسخير العجيب العظيم. بما يفيد أن من دواعي خلق الحواس والعقل هو تحصيل الاستدلال للإنسان بالخلق على الخالق العظيم، فيحصل بذلك الإيمان بالخالق

سبحانه وتعالى، وطاعته، والاستجابة للمرسلين، وما جاؤوا به من التنزيل والحجج والبراهين، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن من لم يستخدم عقله وحواسه فيما خُلقت له فقد حاد بحواسه عن الحق، وسلك بها مسلك الجهل والباطل.

فحث تبارك وتعالى على تأمل الفُلك في جريانها على سطح البحر ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ التي هي السفن وهي ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: تشق البحر، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: المخر في كلام العرب: صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها، وهو في هذا الموضع صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت، وشقها الماء حينئذ بصدرِها[١] فشمل المعنى سيرها وهي تشق البحر بصدرها، مع صوت هبوب الريح إذا اشتدت هبوبها، فجمعت وحوت دلالتها ﴿مَوَاخِرَ﴾ صوت الريح وقوته، وكذلك صوت جري السفينة بالريح، فإن أمر هذا التسخير يستثير التعجب والتأمل، الذي يلزم أن يتحقق به الإيمان والتصديق بما أمر الله تعالى به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يؤكد أهمية التدبر والتأمل في ملكوت الله تعالى فإنه يغرس الإيمان، ويزيد المؤمن إيماناً، كما يبين أن هذا الدين هو دين علم وتدبر وتفكر، ودين يقوم على الحقائق والبراهين التي لا يزيغ عنها إلا معاند ومكابر للحق الواضح المستبين.

وذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك الهدف والغاية من تسخير البحر وما فيه ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتأخذوا ما تشاؤون من رزق ربكم الذي هيئه وسخره لكم، بما يفيد: أنتم المعنيون بهذا التسخير، بما يفيد التكريم الذي يتطلب منكم الطاعة والامتثال لربكم، بناء على ما وردكم من رسوله صلى الله عليه وسلم. فقد تضمن تسخير البحر تهيئته للإنسان من كل وجه، ليبتغوا فيه وبه من فضله المتنوع والمتعدد سبحانه وتعالى، فتصطادون منه الأسماك التي لا حصر لأنواعها وأحجامها وأشكالها وطعمها، فتأكلون منه لحماً طرياً لطيفاً ليناً، وتأخذوا من مكنوناته اللؤلؤ والمرجان والأسماك وغيرها من الخيرات، من غير أن يحصل منه لكم أذى، ومن أوجه تسخيره سبحانه وتعالى أن هيأ البحر للسفن. وجعل للحيتان والأسماك فيه حياة واسعة متعاقبة، فلا تتناقص بأكل الإنسان منها، إذ تتوالد وتتكاثر في مساحة البحر الواسعة، فتصطادوا منه ما تشاؤون دون عناء منكم لصيدها. كما تبخر البواخر بكم على سطح البحر بفضله عليكم، وتسخيره لتلك المسخرات بأمره وتطويعها لكم، فضلاً من ربكم عليكم.

ومن بلاغة الأسلوب أنه بعد تخصيص التسخير أورد تبارك وتعالى التعميم بنعمة نيل الفضل وطلبه، فقال تعالى ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا رزق الله تعالى بهذا الإبحار في البحر، مع البيان والتذكير لهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٨٨)

بجليل نِعَم البحر، بما يحققه لكم من عموم فضله من الأرزاق المختلفة. وبما يتحقق به من عموم فضله عَزَّ وجل، من خلال سيركم بالبواخر فيه ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وورد الفضل بصيغة العموم، ليشمل كل ما يمكن تحقيقه من أنواع رزقه عَزَّ وجل: كالصيد والمتاجرة به، واستخراج الحلية من البحر، وتجارة نقل الناس والدواب والأنعام والأرزاق المختلفة من مكان لآخر، ومن مجتمع لمجتمع آخر، بل شاملة لجميع أصناف ما يبتغيه الإنسان من التجارة في البحر، وعبر البحر.

فأفاد ذلك التخصيص والتنصيص من الله تعالى: عناية الله تعالى بالإنسان وبشؤونه، وأن الإنسان محل رعاية وعناية واهتمام من ربه تبارك وتعالى. فإنكم أنتم المخصوصون بهذا الفضل من التسخير والتذليل للمذكورات. وفي هذا بيان لعظيم كرمه سبحانه وتعالى، وعظيم عنايته بهذا المخلوق الذي هو الإنسان، إذ سَخَّر وطَوّع البحار وما فيها لهذا الإنسان، فإن الإنسان هو المعني بذلك، انعاماً وإكراماً منه تبارك وتعالى. مما يستوجب من الإنسان شكره لربه عَزَّ وجل، واتباع خاتم المرسلين نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم لفت ونبه تبارك وتعالى إلى أن المطلوب من العباد هو شكره سبحانه وتعالى على هذا الإنعام والتفضل، وعلى هذه النعم العظيمة الجليلة، الأمر الذي يتطلب من العباد الشكر لله سبحانه وتعالى على ما سخره لهم ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فهذا الإنعام والفضل لكي تحمدوا ربكم وتشكروه على هذا العطاء من الفضل. مما يوضح للمؤمن بأن إنعام الله تعالى هدفه وغايته الشكر، والحمد والثناء على الله تعالى بما أعطى وأنعم، وأن يستخدمه في طاعته عَزَّ وجل. فإنها مدرسة الإيمان والخير والعبودية والتواضع والشكر للمنعم عَزَّ وجل. وأن أعظم الشكر هو طاعة الرسو صلى الله عليه وسلم، بالامتثال لشرع الله الحنيف، وتوحيده والإخلاص له عَزَّ وجل.

فجملة ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تفيد استدفاع الإنسان لشكر ربه عَزَّ وجل. فلعله يحصل منكم الشكر والثناء على الله تعالى بما هو أهل له، ويشمل الشكر عموم الطاعة بجميع أنواعها القولية والعملية والاعتقادية. وقد ورد الحث على الشكر بأسلوب الترغيب إذ أفادت **(لعل)** الحث والترغيب والتحضيض لهم على مداومة الشكر. وورد الشكر بصيغة المضارع المستمر، ليفيد الشكر الدائم المستمر؛ الذي لا ينقطع. فكيف وقد جمع سبحانه وتعالى للإنسان النعم التي لا تحصى ولا تُعد. اللهم وفقنا لشكرك وذكرك بما يرضيك عنا.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى الظاهرة في حركة الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وجريانها في السماء، وذلك في تعاقب لا ينقطع، وبدقة متناهية في عظمتها الدالة على عظمة الله عَزَّ وجل ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ

مِن قِطۡمِيرٍ﴾ بدأت الآية الكريمة بشد الانتباه عند الْمُخَاطَب بجملة ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ التي تفيد لفت الانتباه للحدث الكوني العظيم الذي يشاهده ويعايشه الإنسان طيلة حياته. ألم تلاحظ وتشاهد أيها الإنسان هذه القدرة العظيمة، وهذا التسخير المبهر، وهذه الدلالة من هذه الآية العظيمة، إذ يُدخل ربك جزأ من الليل في النهار، وجزأ من النهار في الليل بدقة متناهية. والولوج، هو: الإدخال، ومنه: ولج فلان منزله أي دخله. أي يُدخل ما نَقَص من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، وتُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[١] ويشمل كذلك دلالة تدرج دخول الليل في النهار، وتدرج دخول النهار في الليل بدقة غاية في الإعجاز. فإن الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل بهذه العظمة الرهيبة؛ فإنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأنه القوي، فلا يعجزه شيء أبداً، إذ يقول للشيء: كن فيكون.

ثم يلفت الانتباه سبحانه وتعالى إلى ما سخره للعباد في الكون، حتى ينتفعوا به ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ومن نعمته عليكم أيها الناس تسخير الشمس والقمر، فترونها بحركتها، وتعاقبها، وعظمتها، من غير فتور ولا خلل، بل ومطوعتين في خضوع لمراد الله تعالى، فإن الذي سخر الشمس والقمر هو الذي رفع السماء بغير عمد ترونها، وهو رب العرش العظيم الذي لا ترونه بأعينكم، ولكن تصدقون به قياساً على عظمة مخلوقاته، أفلا تؤمنون؟ والشمس والقمر التي هي أظهر الكواكب تسير أمام أعينكم بدقة وإعجاز، أفلا تؤمنون؟ ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فكل منها يسير جرياً منتظماً، إلى وقت مقدر ومؤقت ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت انتهاء الحياة الدنيا. فحركة الشمس وحركة القمر تتعاقب في سيرها من غير خلل إلى أن يحين الوقت المحدد لانتهائها، فلا تتأخر ولا تتقدم، وكلمة التسخير، تفيد التطويع والإخضاع والقهر، فتسير منقادة لتحقيق مصالح خلقه، وذللها لمنافعهم، فيعرفون بها الليل والنهار، والحساب، والأوقات، ويستضيئون بنورها، وغير ذلك من المنافع. بل وكل ذلك الخلق والتسيير الدقيق هو إلى وقت محدد ومعلوم، وهو فناء الدنيا بيوم القيامة، والتي لا يعلم وقتها إلا الله جَلَّ في علاه.

فهذا الإخبار هو لفت النظر إلى كمال قدرته عَزَّ وجل؛ وقوة نُصْرَتُهُ للمحق على من بَغَى وتكبر وكفر، مما يراه الْمُخَاطَب من تَحَكُّمَهُ عَزَّ وجل في الليل والنهار، فيولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل؛ على وتيرة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٤-٣٠٥)

دقيقة في أوقاتها. والتي توضح وتبين قوته وقدرته، وعظيم سلطانه عَزَّ في علاه، سبحانه وتعالى، فإن الذي يتحكم في هذا الشأن العظيم، بهذه العظمة وهذه القدرة، فإنه قادر على كل شيء، ومن ذلك إهلاك من عصى، ولم يطع رسوله صلى الله عليه وسلم.

فورد البيان بأسلوب الالتفات إلى قدرة الخالق بما يبين بها قوته وقهره وعزته. مما يفيد في الجانب التعليمي والوعظ والإرشاد أهمية بيان ما في الكون من عظمة التدبير، وعظمة السلطان، والتغيير، والترهيب والترغيب، فإن فيها مواعظ. وهنا يظهر تناسق التداخل بين الليل والنهار، وبين النهار والليل بصورة عجيبة، تبين قوة قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، وقوة قهره، وقدرته على التغيير بما يشاء، فلا يتقدم منها شيء، ولا يتأخر منها شيء البتة. بما يدل على عظيم مُلْك الله تعالى، وعظيم قدرته وسلطانه، وجمال وكمال تصرفه، فينزع مما أعطاه النهار من ساعات، ليعطيه الليل بحكمه وقدرته، وينزع ما أعطاه الليل من ساعات، فيعطيه النهار بحكمته وعظيم قدرته، فتراها في عملية دؤوبة دقيقة؛ ومتدرجة، وفي صورة مذهلة لمن تأملها، بل ويُدخل الليل على النهار عند مجيئه بتدرج عظيم عجيب، وكذلك يدخل النهار عند مجيئه على الليل بتدرج عظيم عجيب، وفي نسق لا تنازع بينهما فيه. لتتجلى ملكية الله تعالى، وعظيم تدبيره وقدرته وتصرفه في ملكه، فلا يُعجزه بعث الناس بعد الممات، ولا غير ذلك أبداً. فانتبهوا أيها العباد لقدرة الله تعالى، وانتبهوا من الظلم لأنفسكم بالشرك، وعموم الكفر، ولغيركم من جميع أنواع الظلم ودرجاته. وفي نفس الوقت اطمئن أيها المظلوم من عودة حقك لك بقدرة الله تعالى وحكمه وانصافه. مما يفيد الحذر من المعاصي، واليقين بأن الله تعالى سيجازي كلاً بعمله، وسينصر المظلوم فرداً كان، أو جماعة، أو أمة من الأمم.

فبعد استعراض مظاهر الكون العظيم، من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وتسخيره سبحانه وتعالى للشمس والقمر، يتدرج البيان إلى إظهار أن المدبر لذلك هو ربكم. وقد أورد سبحانه وتعالى التوجيه الكريم بالرجوع إلى ما سبق من البيان، فَيُرْجِعُ اللهُ تبارك وتعالى باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، ليتأكد ويتبين لكم أيها العباد ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ فالذي صنع ما ذكره لكم هو الله ربكم ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ له كامل الملك، لا شريك له في ملكه. ثم ينقل العباد إلى النتيجة والمحصلة التي يجب أن يدركوها، ويصححوا عقولهم وأفهامهم بموجبها ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ فيا أيها المشركون، العابدون لغير الله ربكم، فإن الذين تتوجهون إليهم بالعباد ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ وهي القشرة الرقيقة الشفافة التي تكون على النواة. فكيف تتوجهون لفقير عاجز، ولا توحدون المالك القادر، الذي له التدبير والخلق كله، ومنه إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وتسخيره سبحانه وتعالى للشمس والقمر، فأين عقولكم أمام

هذه الآيات الباهرات؟ وفي هذا الأسلوب ما يبين أن هذا الدين قائم على الحجج والبراهين في جميع تشريعه وبيانه. فالحمد لله تعالى على هذا البيان العظيم، والتعليم الشريف.

ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد من حقارة ما يعبدون من دونه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ فيا أيها المشرك ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ﴾ إن تدعون تلك المعبودات من دون الله تعالى فإنهم لا يسمعون منكم شيئاً، فضلاً عن أن يفهموا ما تقولون. وإن تستغيثوا بهذه الأصنام فإنها لا تسمع نداءكم، ولا دعاءكم، ولا توسلكم لأنها جمادات، وبالتالي لا تستجيب لكم. وعلى افتراض أنها تسمع ﴿ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ ﴾ حتى ولوا كانت لها سمع، فإنها عاجزة عن أن تلبي لكم طلباً. وبالتالي كيف تتوجهون لعاجز، وتتركون ربكم القادر، فتوحدونه، وتتوجهون له بالعبادة الخالصة. فهو توجيه بالحقائق للمشركين التي يعرفونها، ويدركونها بالنظر والتأمل.

وبعد كشف الله تعالى لحال الأصنام في الدنيا، يخبر بحالها معهم يوم القيامة ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ ﴾ ويوم القيامة يتبرؤون من عبادتكم لها، وينكرون أنهم راضون عن عبادتكم لها من دون الله تعالى. فلم ينفعوكم في الدنيا، ولن ينفعوكم في الآخرة، فالخسارة بعبادة غير الله تعالى لاحقة بكم في الدارين. بما يفيد: أين عقولكم. فعودوا إلى رشدكم بطاعة ربكم، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لكم في الدنيا والآخرة.

ثم يتجه الإنباء والإخبار إليهم وإلى كل أحد من العباد، ببيان منزلة هذا الخبر ومكانته ودلالته العظيمة ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ ولا ينبئك ويخبرك يا أيها الْمُخَاطَب مثل العالم بالأشياء وبدقائقها، وهو الله عَزَّ وجل، فلا أَخْبَر ولا أعلم منه تبارك وتعالى بالحقائق، وبما سيكون منها في الآخرة. وبالتالي فإن الإنباء والإخبار قد وردكم من ربكم الخبير بدقائق وحقائق الأشياء، والذي ليس مثله أحد في ذلك، مما يُوجب عليكم فهم واتباع ما وجهكم إليه، وأخبركم بما أنتم عليه من الحقائق. فاعبدوا ربكم، واتبعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم، الذي يرشدكم بإرشاد الخبير العليم. مما يفيد وجوب اتباع تعاليم هذا الدين وتوجيهاته في كل أمر وشأن. وعدم الحيدة عنه، وتقديمه على كل شيء، وجعله الإمام الذي يسير العبد خلفه، ليظفر بخير الدنيا والآخرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا

يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن
تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا
ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن
يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى عن كمال عزته بكمال غناه عن غيره، كما يخبر بافتقار غيره إليه في كل صغير وكبير، فقال سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ خطاب إعلام وبيان للناس جميعاً، قد استهله تبارك وتعالى بالنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. ثم قرر للمخاطبين أجمعين بأنهم ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أنتم المحتاجون والمفتقرون إلى ربكم في جميع شؤونكم، بل ورد بيان الفقر مطلقاً، ليعم ويستوفي جميع شأنهم، من قليل ودقيق وكثير، وما هو متعلق بأمور الدنيا وما هو متعلق بأمور الآخرة. بل في تعيينهم ﴿ أَنتُمُ ﴾ ما يفيد التأكيد بالتخصيص، بالرغم من أن كل خلقه فقير إليه، وذلك لأنهم المعنيون بالخطاب، وهم المكلفون.

وفي المقابل ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ والله سبحانه وتعالى هو الغني، والمنفرد بالغنى المطلق عنكم وعن جميع خلقه، وحده لا شريك له، فلا حاجة له فيكم، يحتاجها منكم، ولا من غيركم. وكذلك هو ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المحمود في كل ما يفعله ويقوله ويدبره، ويأمر به وينهى عنه، وهو المستحق للحمد بما أحسن وأنعم على عباده. مما يستوجب عليكم التذلل لربكم، واتباع ما أمركم به، فكيف أنتم الفقراء إليه ولا تطيعونه، وتمتثلون لرسوله صلى الله عليه وسلم ؟ وكما أنه بيان للناس، فكذلك هو تقريع لمن كان في تعامله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو تعامل المستغني. وفي ذلك إرشاد وتنبيه لهذه المعادلة العظيمة التي تستوجب كمال الطاعة والامتثال.

ثم يخاطب تبارك وتعالى كل من يعنيه الخطاب من الكفرة والمشركين بأن الحكم له في استبدالكم إن لم تطيعوه، وتمتثلوا لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ هذا تهديد ووعيد، فيهدد ويتوعد سبحانه وتعالى المكذبين برسوله صلى الله عليه وسلم بالإهلاك، والاستبدال بغيرهم إن لم يمتثلوا لرسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة والامتثال. ويأتي بغيرهم، وبخير منهم، فيمتثلون بالطاعة والاتباع.

فلو أراد سبحانه وتعالى لأفناكم، وخلق قوماً آخرين غيركم. مما يفيد أن استبدالكم بغيركم ليس بأمر عزيز على الله تعالى، وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وقد خلق السماوات والأرض وما فيهما، والتي هي أعظم من خلقكم. مما يقرر به التنبيه والتحذير، ووجوب التأمل وتحقيق الطاعة لله تعالى، فإن استئصال من أراد ليس على الله تعالى بعزيز، بل أهلك من أهلك ممن كان قبلكم. وفي هذا تعريض للكافرين من المشركين وغيرهم، فإنهم هم المقصودون بالتهديد، لأن المؤمنين مُقرّين بما أقره الله تعالى. وجاء الخطاب عاماً ليتقرر به أن هناك من آمن وصدق بهذه الحقائق، مقابل من كفر بالحقيقة الثابتة، بأن الخلق والملك والربوبية والعبودية والألوهية لله وحده لا شريك له.

ثم يبين لهم كمال قدرته عَزَّ وجل في ذلك ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ وما ذلك الإذهاب بكم، والاستبدال بغيركم على الله تعالى بممتنع، ولا متعسر. فليس ذلك متعذر، ولا ممتنع على الله تعالى، فقدرته تَجَلَّت لكم في خلق السماوات والأرض. فواجبكم الطاعة والامتثال. وفي هذا ما يفيد التحذير والتهديد والترهيب إن لم يمتثلوا بما بينه سبحانه وتعالى من الحجج والبراهين فيما سبق من الآيات الكريمة.

ثم يخبر الله تعالى بعدله القائم على أن كل نفس تتحمل ما يكون منها، من خير أو شر. بما يعالج شأن النفوس من أن يمسها شيء من عقوبة فساد غيرها ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلا تحمل النفس الآثمة إثم غيرها، فلا تحمل كل نفس إلا إثمها الخاص بها، فلا تحمل ذنوب وعاقبة ووبال الأنفس الأخرى، ليتحقق العدل في الحساب ثم في الجزاء، ومعنى الوزر: الإثم، وهو الثقل، لأنه أشبه بالحمل الثقيل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ والوازرة هي الحاملة، التي عملت الوزر، الذي هو الإثم. وهذا لا ينفي مسؤولية من أوقع غيره في الإثم، بأن يتحمل إثم نفسه فيما يخص إيقاع وإغراء غيره في الإثم، ويقيس عليها غيرها من الأسباب. وهذا تحذير من مغبة اكتساب الإثم بالتمرد والعصيان، فكل نفس لا تؤاخذ إلا بما اقترفت وكسبت، فاكتساب الشر والخير عائد عليها.

وهو تأكيد ومزيد بيان، بأن الوزر الذي هو ذنب المذنب لن يحمل عقابه غيره، فلن يحمله عنه أحد غيره، فكل نفس مرهونة بما كسبت. فلا يؤاخذ الله تعالى أحداً بذنب غيره، وهذا بيان لعدل العقوبة، وأن كل إنسان يتحمل وزره، وعقوبة وزره.

ثم يؤكد ويوضح تبارك وتعالى أنه فيما لو طَلب إنسانُ مُحَمَّل بالآثام من غيره أن يحمل عنه شيئاً من آثامه فلا يمكنه ذلك، ولا يُمَكَّن لأحد من ذلك، ليتقرر بذلك مسؤولية الفرد عن نفسه، حساباً، وعقوبة

﴿ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ ﴾ وهي النفس التي أثقلتها كثرة الذنوب ﴿ إِلَىٰ حِمۡلِهَا ﴾ وهو ما تحمله من الخطايا التي أثقلتها ﴿ لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ ﴾ لن يحمل غيرها عنها شيئاً أبداً ﴿ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ ﴾ ولو كان المدعو ذا قرابة في النسب، بما يفيد: فكيف بغيرها مما لا قرابة بينهما. مما يبين الانفصال وانتهاء التعاون على تحمل تبعات الذنوب، فإن كل نفس بما كسبت رهينة به. فهو إخبار من الله تعالى بعدله القائم على أن كل نفس تتحمل ما يكون منها، من خير أو شر. بما يعالج شأن النفوس من أن يمسها شيء من عقوبة فساد وجرم غيرها. كما يبين أن من تجاملهم في المعصية لن ينفعوك بشيء أبداً يوم الحساب والجزاء.

ثم يبين تبارك وتعالى نوع وصنف الناس الذين يتعظون بمواعظ النبي صلى الله عليه وسلم، فيوجه تبارك وتعالى الخطاب إلى رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إنما تنفع وينتفع بإنذارك أيها النبي أهل الخشية، فهم الذين يتعظون بإنذارك، بما يفيد أن الانتفاع بالنذارة مخصوصة وخاصة بهم، لأن غيرهم انتفت منهم الخشية من ربهم، وبالتالي فإنهم غير منتفعين بما تنذرهم به ومنه. لأن ﴿ إِنَّمَا ﴾ أفادت حصر الانتفاع في الذين يخشون ربهم. مما يفيد ويبين أن الخشية أصل في الاتعاظ والامتثال، لأن الخشية تعني المهابة والخوف من الله سبحانه وتعالى، والتذلل له عَزَّ وجل، فنتيجة الخشية، يحصل التأثر بالإنذار ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ فيخشونه بالغيب، أي: حال وحدتهم، وانفرادهم عن غيرهم، فلا يراهم أحد، فإنهم يمتنعون عن الذنوب، لعلمهم وإيقانهم بأن الله تعالى يراهم، ويرصد ما كان منهم، ويحاسبهم ويجازيهم. فيخشون عذاب الله تعالى وهم لا يرونه، فيخشونه في الخلوات. مما يؤكد ويُظهر منزلة الخشية وأثرها على الطاعة والاستقامة. وهي مشاعر في داخل النفس، ولكنها تنعكس وتظهر على الجوارح.

وإضافة إلى صفة الخشية فإنهم كذلك يؤدون الصلاة كما أمر بها الله عَزَّ وجل ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي الإتيان بالصلاة والمحافظة عليها، وتحقيق الخشية بالإخلاص له سبحانه وتعالى، والخوف منه، واتقاء سخطه وغضبه، والرجاء فيه سبحانه وتعالى. وتعني إقامة الصلاة: أداؤها وإتمامها على الوجه الذي يجب، مع المداومة عليها في أوقاتها. ومن دقائق النص الكريم أن فعل الإقامة ورد بصيغة الماضي ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ليدل على ملازمتهم على أداء الصلاة حتى خرجوهم من الدنيا. كما أفاد ذلك على وجوب الصلاة. ويدل لفظ القيام ﴿ وَأَقَامُواْ ﴾ على الإجلال القلبي والحسي، من الخشوع وأداء الأركان والواجبات، والسنن. ويدل فعل الإقامة كذلك على إنشاء قياماً خاصاً لها، فتكون هي السبب في قيام من قام لها، وليس القيام من أجل غيرها، فكانت

تبعاً لغيرها، بل هي أصل القيام، وإن تبعها غيرها من شؤون وأعمال الإنسان، فهي متبوعة وليست تابعة، وفي هذا دلالة على مكانتها ومنزلتها.

كما أن جملة ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تتضمن النية، لأن القيام لها مقترن بنية القيام، فلم يقم لغيرها، بل قام لها، حتى وإن فعل شيئاً أثناء قيامه لها، فلا ينصرف أصل القيام إلا لها. وفي التعبير بلفظ القيام ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما يدل على منزلتها وعظمتها، فاللفظ في القرآن مقصود بعينه، لما فيه من الدلالة على المقصد والمعنى. ويدخل في ذلك ما هو لازم لها كشرط الوضوء ونيته، واستقبال القبلة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم يخبر الله تعالى بمحصلة الطاعة والامتثال لدينه وشريعته عَزَّ وجل ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فإن محصلة الطاعة والامتثال لله رب العالمين عائدة على صاحبها، فهو المعني، وهو المستفيد. والتزكية تعني التطهر من الكفر والمعاصي. بما يفيد أنه بتحقيق الطاعة لله تعالى وفق ما شرع يحصل بذلك التنقية من الذنوب. فمن تطهر من المعاصي، وعمل الصالحات من القول والعمل والاعتقاد فإنما يتطهر لنفسه ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فهو المستفيد، وليس غيره، وبالمقابل: فإن من بقي على الكفر والشرك والمعاصي فإن شر ذلك واقع عليه، وليس على غيره. ومن فوائد ذلك أن الطاعة تُطهر العبد مما يكتسبه من الذنوب، وما يُقَصِّرُ فيه من الطاعة، وكذلك من فوائدها أن في الطاعة لله تعالى ما تزكو به النفوس وتنصلح. والتزكية تفيد المبالغة في التطهير، وارتقائه من درجة تنقية الذنوب إلى ما تنصلح به النفوس وتزكوا به الأعمال، فترتفع درجات من تزكى في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر تبارك وتعالى بمصير الإنسان وأعماله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فمصير الإنسان الرجوع إلى ربه تبارك وتعالى، فيحاسبه، ويجازيه على ما كان منه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي هذا ترغيب للمطيع على الاستمرار في الطاعة، وترغيب للعاصي أن يخرج من المعصية إلى الطاعة، وترهيب للعاصي من المعصية، وتعزيز حرص المؤمن على الطاعة، واجتناب المعصية، لإدراكه أن مصيره إلى الله تعالى، حيث الحساب والجزاء.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى ضرب المثل الذي يوضح الفرق العميق بين المؤمن والكافر، والعاصي والمطيع، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ يعني: المؤمن والكافر، فإنهما لا يستويان. فَشَبَّه الكافر بالأعمى الذي لا يبصر، فانتفي منه رؤية الحق، وشَبَّه المؤمن بالبصير الذي رأى الحق فأدركه وأخذ به بعد أن أبصره، فهو في نور من ربه، بينما الكافر في طريق مظلم. كما ورد السياق الكريم بنفي التساوي

مطلقاً، ليستوفي النفي في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالمؤمن محبوب عند الله تعالى، بينما الكافر مبغوض في الدنيا والآخرة، والمؤمن في الجنة، والكافر في النار.

وكما أنه لا يستوي الأعمى المتمثل بالكافر، مع البصير الذي يمثل المؤمن فكذلك لا تستوي الظلمات ولا النور ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ فلا يستوي الباطل الذي تمثله الظلمات، ولا النور الذي يمثله الإسلام من الحق والهدى. فكلاهما أمران متضادان، فلا يجتمعان، وكذلك هما أمران ينجم من كل واحد منهما ما يناسبه، فالباطل لصاحبه كمن يسير في الظلمات، فلا يبصر موقع قدميه، فيقع في كل شر يقابله، بينما المؤمن يسير في نور من الهدى والحق، فهو على بينة من أمره، فيسير مع الحق ويتجنب الباطل.

وكذلك لا تستوي مواقع الظل ومواقع الحر ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ والحرور هو ما ينتج عن الشمس من الحرارة، فإنها لا تتساوى مع الظل. وسُمّيَّ الحر بالحرور لإفادة المبالغة في شدته، فالظل يمثل الجنة التي هي عاقبة المؤمنين، والحرور يمثل النار التي هي عاقبة وجزاء الكافرين، فالمؤمن كمن يعيش في الدنيا تحت ظلال الحق، وفي الآخرة يعيش في نعيم الجنة وظلالها، بينما الكافر يعيش في عناء وقلق في الدنيا، وفي الآخرة يعيش في حرور النار ولهيبها وعذابها. فهما حالتان غير متساويتان. ليتعظ المتعظون.

وكذلك لا يستوي الذي فيه الحياة بحركته، مع الذي فقد الحياة بموته ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ فلا يستوي الحي الذي يمثله المؤمن بقلبه الحي بالإيمان، والميت الذي يمثله الكافر، صاحب القلب الميت. فكلاهما أمران متضادان، فلا يجتمعان في الصورة، ولا في الأثر، ولا في التأثير، ولا فيما يكون منهما. فالمؤمن حي، متوقد بحركة الإيمان ودوافع الخير والعطاء، بينما الكافر حاله كحال الميت في الخير. ففي الصورتين تضاد الحركة. بينما في الأعمى والبصير تضاد في الرؤية ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ افتقاد الرؤية للحق. وفي التشبيه الآخر التضاد في النور ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ إظهار الفوارق وعدم التساوي بين ظلمة الكفر والجهل، والنور الذي يمثله الحق والهدى. فالمؤمن لديه نور في منهج الشريعة الغراء، والكافر في ظلمة الكفر الذي لا منهج له غير العبث. وفي التشبيه الآخر التضاد في الحرارة والبرودة ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ الذي تمثلت فيه الحياة الدنيا والآخرة، فالمؤمن في الدنيا كالجالس والسائر في الظلال الوارفة، والكافر حياته كحياة السائر في حرارة الشمس، وتكون حياة المؤمن في الآخرة في جنات ونعيم، والكفرة في لهيب النار يصطلون. فهي أمثال متعددة الأوجه والبيان، واستوفت بذلك التعدد في التشبيه لجميع أحوال الفريقين. فكما لا تستوي هذه المتضادات، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر من كل وجه، وحال، ومآل. فمع قوة البيان بتلك

الأحوال المتضادة يظهر كذلك قوة إبداع البيان في تجلية الحق عن الباطل، وبيان الحال والأثر من كل وجه. فسبحان من أظهر الإعجاز في بيانه كما أظهر الإعجاز في خلقه وتدبيره.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بانتفاء خروج الكافرين عن مشيئته، فلو شاء لألزمهم بالطاعة، ولكن لله حكمة في أن جعل لكل إنسان مشيئته، وأنه سبحانه وتعالى يُفهم الحق من يريد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ فإن الله تعالى بقدرته ﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ يُفهم ويُسمع الحق لمن يشاء من عباده الذين لهم الجنة، لأنه عَزَّ وجل هو الهادي إلى سواء السبيل، والموفق للخير والصلاح. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فكما أنك أيها النبي ما أنت بمسمع الأموات في قبورهم الحق، فكذلك ما أنت بمسمع أموات القلوب من الكفرة المعاندين، فقلوب المعرضين المعاندين كالأموات في القبور. وبالتالي تنحصر مسؤوليتك أيها النبي في الإنذار ﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ فمهمتك ومسؤوليتك أيها الرسول تتمحور في الإنذار. وأما الهداية التوفيقية فهي لله تعالى، فينتفع بإنذارك أيها النبي أهل الطاعة والخشية، فهم الذين يتعظون بإنذارك، فالانتفاع بالنذارة مخصوصة وخاصة بمن يقبلونها، وأما الجاحدون لها، والممتنعون عنها وعن الترغيب وعن البشارة فإن الخشية من ربهم قد انتفت منهم، وبالتالي فإنهم غير منتفعين بما تبشرهم به. فخصهم بالإنذار، لأن البشارة قد انتفت منهم، فلم يتأثروا بها، ولا رغبة لهم في الخير، فكان التخويف أولى في حقهم.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ ﴾

يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك الناس أجمعين بمهمة رسوله صلى الله عليه وسلم، بأنها مقتصرة على البشارة والنذارة، فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ يقول سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما يُعَلِّم الناس أجمعين، بأربع حقائق:

الحقيقة الأولى: إثبات رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ فالذي أرسله نبياً ورسولاً هو الله سبحانه وتعالى، وفي هذا إثبات وتزكية للرسول ولرسالته عليه الصلاة والسلام. والحقيقة الثانية: متعلقة بمحتوى وموضوع الرسالة ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ فمحتوى الرسالة هو الحق. فالذي جاء به عليه الصلاة والسلام هو الحق الدامغ للباطل، والمبدد والمشتت له. وأنها الشريعة الحق التي لا يرضى سبحانه وتعالى بغيرها أبداً. وأن مضمونها حق لكل من نظر إليها، وأن الباطل منتفي منها في مضمونها، وفي جميع جزئياتها وأهدافها. والحقيقة الثالثة: متعلقة بمهمته صلى الله عليه وسلم مع الناس ﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ تبشر الناس بأن من لزم الحق الذي جئتهم به حصل له ثواب الله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿ بَشِيرٗا ﴾ فتبشر المطيع بأن الله تعالى يدخله الجنة بكرمه وفضله ﴿ وَنَذِيرٗا ﴾ بأن من كفر دخل النار. فتنذرهم من عذاب النار، ومن عذاب القبر. والحقيقة الرابعة: الإخبار بأن جميع الأمم السابقة قد أرسل الله سبحانه وتعالى لها رسولاً ينذرهم عقاب الكفر ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ وليس هناك أمة إلا ﴿ خَلَا ﴾ أي: مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ أي: رسول ينذرهم من عاقبة الكفر، وعدم التصديق بما جاءهم به رسولهم الذي أرسل إليهم، وبالتالي فلست ببدع فيما أرسلناك به أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم.

واقتصر البيان هنا على النذارة دون البشارة، باعتبار المكذبين الذين كذبوا بمن سبق من الرسل، واكتفاء بدلالة ما قبله الذي هو ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وأيضاً لما هو ألصق بالسياق والمقام المتعلق بالنذارة للكافرين. وللإشارة بكثرة امتناع غيرهم ممن سبق عن الترغيب وعن البشارة، فخص السابقين بالإنذار. كما تؤكده الآية التالية، وهي أوجه يستوعبها البيان لغزارة معطياتها المتوافقة مع البشارة والإنذار.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن امتناع من امتنع من أهل مكة، وعدم طواعيتهم للبشارة، وعدم خوفهم من الإنذار، لا يعني أنه أمر غريب، فقد سبقتهم أمم بذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ فإن كذبك هؤلاء أيها الرسول ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ فقد حصل من الأمم التي قبلهم التكذيب ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ فقد جاءت تلك الأمم رسُلُهُم التي أرسلناهم إليهم ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: بالحجج والمعجزات والبراهين الواضحات والدلالات الظاهرة، وكذلك ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ أي: الكتب، كصحف إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فيدخل فيها التوراة والإنجيل، ثم يؤكد عَزَّ وجل ذلك ﴿ وَبِٱلۡكِتَٰبِ

﴿ٱلۡمُنِيرِ﴾ فكل كتب الله تعالى منيرة بالحق والإعجاز والصدق، فيدخل تحتها كذلك التوراة والإنجيل، وما سبقها من الكتب.

ومن دقائق ولطائف البيان: أن في توحيد كلمة ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وتوحيد الكتاب ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ ما يدل على وحدة الدين، في التوحيد، والإيمان، وما فرض وشرع لكل أمة من التشريع. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحة، والدلالات الظاهرة ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، كصحف إبراهيم ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي: كالتوراة والإنجيل. قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبور، وتحت البينات، والعطف لتغاير المفهومات. وإن كانت متحدة في الصدق. والأولى تخصيص البينات بالمعجزات، والزبر بالكتب التي فيها مواعظ، والكتاب بما فيه من الشرائع والأحكام[1] مما يدل على تظافر الألفاظ ليتظافر البيان بالوضوح، والتأكيد.

ثم يعظ الله سبحانه عباده المعاندين بما كان منه عزَّ وجل مع من كفر الأمم السابقة، فقال تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: ثم بعد تكذيب المكذبين بالرُّسل أخذتهم بالاستئصال. فالأخذ هنا هو الاستئصال بالعذاب، بعد انتهاء زمن الإمهال ومدته. فأخذهم الله تبارك وتعالى بالعذاب الذي يستحقونه. وأفادت كلمة الأخذ ﴿أَخَذۡتُ﴾ كمال التمكن، بما يفيد تمام السلطة والقدرة عليهم أجمعين.

ثم يبين قوة أخذه لهم سبحانه وتعالى في صيغة سؤال تقريري، يقرر به ما كان لهم من شدة الأخذ الأليم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فتأملوا كيف كان إنكاري وعقابي لما كانوا عليه من الكفر والعناد والتكذيب بالحق؟ فقد كان في أشد وأبلغ أنواع الأخذ والإنكار، بما نالهم من العذاب الشديد. وبمعنى: ألم يكن إنكاري لهم في أشد ما تكون العقوبة؟ فمنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلكهم الله تعالى بالريح العقيم، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أهلكهم بالغرق، ومنهم من أرسل عليهم عذاب يوم الظلة. فليكن في ذلك عبرة لهؤلاء المكذبين من قومك أيها النبي. صلى الله عليه وسلم.

وأفادت ﴿فَكَيۡفَ﴾ الاستفهام من أجل التهويل، مع إفادة توبيخ الكافرين، ومن ينهج نهجهم. أي: فكيف كان إنكاري لهم كفرهم؟ وكيف يكون حالهم عند أخذهم؟ بما يفيد حصول الإهانة والذل لهم ﴿فَكَيۡفَ

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٦/٤)

كَانَ نَكِيرِ ﴾ وهو استفهام توقف وتعجب وتدبر وتأمل للموقف بكامله. وفي ذلك استثارة الذهن للتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال من يعاند ويكابر. وهو أسلوب يستثير النفس والعقل للتفكر في الحقيقة التي سيكون عليها الْمُخَاطَب والمعني بها من العباد.

ثم يتوجه البيان للفت الانتباه إلى دلائل قدرته سبحانه وتعالى فيما يكون من إنزال المطر الذي تحيا به الأرض بعد موتها، وما يُنعم اللهُ تعالى به على عباده من الإنبات وحصول الثمار. فيقول عَزَّ وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فيتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بلفت الانتباه واستثارة العباد جميعاً إلى عظيم تدبيره سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح، فيقول عَزَّ وجل﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ فأورد الله سبحانه وتعالى هذا التوجيه الكريم، تبياناً وإيضاحاً إلى كريم إنعامه على عباده، بهذا التدبير من إنزال الماء من السماء، فتنبت لهم الأرض من أشجار الفواكه والخضار وتنوع النباتات التي يأكلون ويدخرون منها. وأيضاً تبياناً وإيضاحاً بأن الذي أنزل المطر من السحاب المسخر بين السماء والأرض، ثم اخضرار الأرض بعد جفافها وموتها، هو الله تعالى، الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وليدل على كمال قدرته عَزَّ وجل على الإحياء بعد الإماتة، وتأكيد البعث والنشور، ودليل على لطفه وعنايته ورحمته بعباده، وأنه على كل شيء قدير. وأنه الذي يجب أن يفرده العباد بالعبادة والطاعة والامتثال.

فبدأ التوجيه الكريم بسؤال تقريري لما يشاهده المخاطبون من عباده ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد عيناك أيها الْمُخَاطَب. ففي ذلك شد الذهن والحس والانتباه إلى المرئي الذي سيذكره الله سبحانه تعالى عن إحياء الأرض بالزرع بعد موتها بجفافه وحطامه. ولبيان عظمته التي لا يمكن أن يتغافل عنها الرائي، أو يتعذر من رؤيتها. وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يشاهده بعينه وبصيرته. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية الكريمة إلى أن يُفْنِي اللهُ تعالى الأرض ومن عليها بقيام الساعة، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو

لكل من يصلح له[١] ففي إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه خطاب لكل أحد من الناس بعينه، فيخاطبه رَبُّهُ تبارك وتعالى بذاته، فإن الرؤية حاصلة لكل بصير بنفسه. وهذه دقة في الخطاب والتوجيه، وفي صيغة البيان، وقوة أثره.

وإن كان الخطاب موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو لتعظيم شأنه وشأن ما يشاهدونه، ولكن سياقه يعطي دلالة العموم، دون تحديد وتعيين مُخَاطَباً بعينه، ليشمل جميع عباده من غير تخصيص. لأن في إفراده ما يفيد التعميم، بأنه لكل أحد من الناس، بأن خاطبه الله تعالى بذاته، ليقيم عليه الحجة بهذا المثل المضروب منه عَزَّ وجل، وهذه دقة بيانية في الخطاب، وفيما تضمنه من مقاصد التوجيه، وفي بلاغة بيانه، وقوة صياغته، وأثره على النفس البشرية. فهو سؤال يشد الانتباه، ويوقظ الذهن، ويستدعي التفكير، ويستثير التأمل، مع إثارة الترقب والمتابعة لعظيم ما بعده من التوجيه والبيان الرباني الكريم. وتأتي جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى ألم يلفت انتباهك هذه المشاهد العظيمة للكون. وكذلك هو سؤال تقريري، لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه واقع ما يشاهده المخاطب من آيات الله تعالى العظيمة الدالة على الإحياء بعد الإماتة.

وفي هذا من الفوائد أيضاً: التعجب من الحال والأمر الذي يحمل الإعراض عن الحق، الذي يشاهد العباد دليله، ويتعايشون معه، والذي يكشف للعباد ما غاب عن حالهم، بما يوجب ويُحقق لهم استبصار وفهم الحق بأصوله. فتفيد ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التعجب من حال من لا يتدبر ويتفكر، ويستدل بالمخلوق على الخالق، وعلى الحركة والتغيير على قوة المدبر عَزَّ في علاه. وهو أسلوب توقف وتأمل، يستثير ويستدعي الذهن للتأمل والتفكر فيما يجب أن يتفكر فيه، وفي دلالاته المفضية إلى توحيد الله عَزَّ وجل، ليستعيد به الإنسان صحيح الرؤية في الأمر. فعجباً من هؤلاء الذين لا يتدبرون ما يرون من حركة الخلق.

والبيان بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو سؤال استفهام، لكنه تقريري، بسبب ما يدركه المخاطبون بعقولهم التي وهبها الله تعالى لهم. وهو سؤال يشد الذهن والانتباه والحس إلى المشاهدة في الكون لتدبير الله تعالى المبينة لحقيقة ما يشاهدونه من الحجج التي لا يمكن أن يعارضها عاقل، وبالتالي أعطى وأفاد السؤال دلالة التقرير، ولكنه بصيغة الاستفهام عَمَّا هو مشاهد بالعين، ومحسوس بكافة الحواس، فَيُلْجِئُهُ إلى الإقرار بالحقيقة والبرهان والدليل المضروب له بالمثل.

وقد أثبتت الآية الكريمة وقررت بأن نزول المطر من الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فهو الذي ينزل المطر من السماء، وليس غيره. بما يثبت ويبين أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه هو

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٧/٤)

الذي يجب أن يُعبد وليس غيره. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بتعيين مكان النزول بأنه من السماء ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفي هذا البيان شد الانتباه إلى الارتفاع، وإلى السحاب الذي يتحرك في ذلك العلو العظيم، ليتدبر الْمُخَاطَب مقدار ارتفاع السحاب وعلوه في السماء، وسيره ورحيله وتنقله من مكان إلى مكان، فلا يستطيع أحد من خلقه أن يتحكم في قدره ومقداره، ولا أن يمنعه أحد عن أحد، بل يمتد بالتفكير والتفكر إلى مقدار قلته وكثرته؛ فينزله بالقدر الذي يحتاجه العباد، وتستوعبه الأرض، فلا إجحاف فيه لتموت الأرض، ولا غزارة ليهلك الخلق به. فمن هو الذي قدر هذه المقاييس؟ فأنزله بمقدار ما تستوعبه الأرض، ثم يسوقه من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، وينزل المطر على هيئة قطرات، لتجري به أودية وشعاب كالأنهر؛ أو أشد جريان منها، حتى جاء تسميته على حقيقته بالماء ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ومن بديع البيان أن نسب الله تعالى إنزال المطر إليه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ فكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ تُنبه الْمُخَاطَب أن الذي أنزل هذا المطر هو الله تعالى، بقدرته ومشيئته، ولينتفي بهذا الحصر للإنزال جميع المعتقدات الفاسدة في نزول المطر.

ثم يوضح تبارك وتعالى العلاقة بين الماء الذي أنزله من السماء وبين خروج النبات من الأرض، ليظهر كمال قدرته، وعظيم صنعه للعباد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فبهذا الماء أخرجنا لكم به ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ جمع ثمرة، ليدل على الكثرة ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: مختلفة في أصنافها وأنواعها وأشكالها وأجناسها، وفي ورود الثمر بصيغة الجمع ما يدل على الكثرة في النوع والأشكال والأحجام، والطعم المتفاوت في درجات دقيقة جداً. فجميع هذا يدل على بديع صنع الله تعالى، وإكرامه لكم أيها الناس، مما يستوجب منكم طاعته وتوحيده، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم. فالحمد والشكر لله سبحانه وتعالى.

ثم يعضد ذلك التقدير والتدبير العظيم بما أظهره سبحانه وتعالى في اشكال الجبال، وتنوعها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ومما خلقنا من الجبال المتنوعة التي منها ﴿جُدَدٌ﴾ أي: في التحبير والخطوط والتغاير والتلوين ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ هي ما في الجبال من الخطوط، والتحبير في الألوان، والتغاير في رسمها، وهيئتها، وأشكالها، وعروق الألوان. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: الجدد: الخطوط والطرائق، تكون في الجبال، فبعضها بيض، وبعضها حُمر ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ وبعضها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ والغرابيب جمع غِربيب، وهو الشديد السواد[1] ففي هذا لفت

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٥٢)

الانتباه لما تَعَوَّدَ عليه الإنسان، بأن عليه أن يُعيد النظر والتأمل، ليكتشف عظيم قدرة الله تعالى، وعظيم إبداعه في مخلوقاته التي تدل على عظمة الخالق، وأنه على كل شيء قدير، وأنه يبعث من يموت، وليست هناك استحالة على من هذه قدرته، وإبداع خلقه، وعظيم إنعامه من تنوع الجبال في أحجامها وألوانها، وما فيها من الخطوط، وتفاوت التراكيب، والتصاميم. كما هي الثمار وأشجارها، في تعددها، واختلاف ألوانها وطعمها، وأشكالها، وأحجامها. مما يقرر أثر التأمل في الاستدلال على إبداع الخالق فيما خلق، مما يقرر أهمية التعليم بلفت الانتباه لعظمة مخلوقات الله سبحانه وتعالى، فإنها آيات بينات.

ثم يتدرج البيان إلى لفت نظر الإنسان إلى جنس الإنسان، والدواب، والأنعام، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ يخبر الله تعالى بأنه إضافة إلى ما سبق من ظهور عجائب قدرته في خلقه، ودقائق اختلاف ما خلق، كاختلاف ألوان الثمار وأشكالها، والجبال وأحجامها وألوانها فإنه كذلك الاختلاف حاصل في جنس الإنسان ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ فكذلك قَدَّر الله تعالى ذلك الاختلاف حتى في جنس الإنسان. فالمتأمل يرى الاختلاف في الناس، سواء في الألوان والأطوال، أو الأحجام، والأشكال، فإنه حاصل في جنسكم أيها الناس، وكذلك في جنس الدواب ﴿وَٱلدَّوَآبِّ ﴾ وهو كل ما يدب على الأرض، وكذلك في جنس الأنعام ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ من الأغنام، والإبل والبقر، فاختلافها حاصل فيها، فأكد بقوله عَزَّ وجل ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ وجود الاختلاف في الإنسان والدواب والأنعام كما هو حاصل في اختلاف الجبال، واختلاف الثمار. فهذا الاختلاف من أعظم الأدلة على بديع صنعه في خلقه، والذي يدل على كمال قدرته عَزَّ وجل. مما يدل على أهمية التأمل والانتباه إلى عظيم قدرة الله تعالى المبثوثة في الكون، وفي الأنفس، والشجر والثمار والدواب والأنعام، وحركة الليل والنهار، والشمس والقمر، وجريان السحاب بين السماء والأرض، وما خلق من البحار والأنهار، وما خلق فيهما، وما سخره من مرور وجريان السفن العظيمة فوق سطح البحر، وهي تمخر بما فيها من الأحمال الثقال، لتنقله من بلد إلى بلد بفضل وإنعام من الله تعالى على عباده عَزَّ في علاه.

ثم ذكر تبارك وتعالى التعريف بالعلماء، وعلاقتهم بمعرفة ربهم جَلَّ في علاه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عَزَّ وجل. وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنما يخشاه حق خشيته العلماء، العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، والمنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر[١] فالعلماء الحقيقين هم أهل الخشية من الله تعالى، مما يبين أن من لم يخش الله سبحانه وتعالى ليس بعالم، لأن علمه لم يغرس فيه الخشية، وبالتالي يقول بما يناسبه، لأنه فقد الضابط لعلمه، واستنتاجه وتحليله، وفهمه، فَيُجْرِي علمه وفق هواه، فانتفت منه الخشية. وفي هذا تحليل وبيان عظيم لمعنى العلماء. وأن من لم يضبط علمُهُ تصرفَاته وسلوكه فليس بعالم. وأن العالم من اتصف بالفهم والقول والتطبيق.

ثم يخبر تبارك وتعالى بصفتين من صفاته العظيمة الجليلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ فاعلموا أن ربكم ﴿عَزِيزٌ ﴾ أي: أن الله تعالى هو الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. مما يعزز عند العباد الخوف من عزته تبارك وتعالى، وخشيته، والخوف من عقابه وقهره لمن عصاه. وأما الصفة الثانية فإنها مطمع للإنسان: فإن ربنا جَلَّ جلاله ﴿غَفُورٌ ﴾ يمحو الذنوب، ويسترها، ولا يعاقب عليها لمن استغفر وتاب وأناب إليه عَزَّ وجل. مما يعزز ويحفز الإنسان إلى الرجوع إلى الحق، وترك المعاصي وهجرها، وأن يتوب إلى ربه جَلَّ في علاه. فقد جمعت الصفتين الكريمتين الترهيب والترغيب. وهذا من لطف الله سبحانه وتعالى بعباده، إذ يوجههم بما يصلحهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ
لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ
أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا
نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦١/٣)

يخبر الله تعالى بثوابه، وعظيم عنايته بمن أطاعه، وامتثل بما نَزَّل من الحق، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ يبين سبحانه وتعالى بأهم الأعمال التي من اتصف بها نال الخير العظيم، وهي ثلاثة أعمال، العمل الأول: تلاوة القرآن العظيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي: إن الذين يعتنون بتلاوة القرآن العظيم، بما ينعكس على التطبيق والامتثال بما فيه من التشريع، فيستوفون به طاعة ربهم. وذلك نتيجة الإيمان بالقرآن العظيم، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهو أيضاً كناية عن إيمانهم، لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صَدَّق به، وتلقاه باعتناء. وتضمن هذا أنهم يكتسبون من العلم الشرعي: من العقائد والأخلاق والتكاليف. فقد أشعر الفعل المضارع ﴿يَتۡلُونَ ﴾ بتجدد تلاوتهم[١] وسَمَّى الله سبحانه وتعالى القرآن بالكتاب، وهو اسم لجنس الكتاب، ليبين أنه إذا أفرد بجنسه فلا يكون إلا هو المقصود، لعزته وعظمته، كما أنه تبارك وتعالى أضافه إليه ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ لإظهار وجاهته ومنزلته وعظمته وشرفه، وحظ من يتلوه، وشرف له أن يتلو ويردد كلام ربه عَزَّ وجل.

والأمر الثاني: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي الإتيان بالصلاة والمحافظة عليها. وتعني إقامة الصلاة: أداؤها وإتمامها على الوجه الذي يجب، مع المداومة عليها في أوقاتها. ومن دقائق النص الكريم أن فعل الإقامة ورد بصيغة الماضي ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ليدل على ملازمتهم أداء الصلاة حتى خُرُجُوهم من الدنيا. كما أفاد ذلك على وجوب الصلاة. ويدل لفظ القيام على الإجلال القلبي والحسي، من الخشوع وأداء الأركان والواجبات، والسنن. ويدل فعل الإقامة كذلك على إنشاء قياماً خاصاً لها، فتكون هي السبب في قيام من قام لها، وليس القيام من أجل غيرها، فكانت تبعاً لغيرها، فهي أصل القيام، وإن تبعها غيرها من شؤون وأعمال الإنسان، فهي متبوعة وليست تابعة، وفي هذا دلالة على مكانتها ومنزلتها. وقد سبق المزيد عن الصلاة في هذه السورة المباركة.

والأمر الثالث: هو ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ وإضافة إلى تلاوة القرآن وأداء الصلاة فقد حصل منهم الإنفاق من أنواع ما رزقهم الله تعالى، سواء كان سراً في الخفاء، فلا يعلم به أحد، أو كان علانية، قد علم به غيرهم. ومن مزايا التوجيه الكريم وجود التبعيض ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾ ليس جميع ما رزقناهم بل شيئاً منه، وجعل الذي يحدد ويقدِّرُ بعضه هو المنفق، مراعاة لأحوال الْمُنفَق عليهم، وأحوال الْمُنفِق،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٥٢-٢٥٣)

وأحوال مقدار الموجود مما ينفقه المنفق. ونسب سبحانه وتعالى الرزق له عَزَّ وجل ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ليفيد ما عندكم من الرزق هو عطاء من ربكم لكم، وبالتالي فإن لذي أعطاكم هو الذي يُخلف بغيره وأحسن وأكثر منه. وفي ذلك دفع المؤمنين للإنفاق. وكذلك لم يحدد التشريع الكريم نوعاً أو أنواعاً معينة ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ لتستوفي جميع أنواع الإنفاق، من مأكول ومشروب، وأموال، وغيرها من لوازم الحياة التي لا تُحصى. وجعل تبارك وتعالى النفقة في جميع الأحوال، حتى فيما يخص الإسرار بها أو العلانية ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وفي هذا معالجة لأحوال الإنفاق في أوجه الخير، إذ أن الأصل فيها السر، لأن المقصود بها الإخلاص لله تعالى بإنفاقها، وليس معرفة الناس بها. ولما أنه قد يتعذر في بعض الأحوال السر بها، فساوى بينهما سبحانه وتعالى، طالما أنها لا رياء فيها ولا سمعة مقصودة من المنفق. وفي هذا معالجة لأدق أحوال الإنفاق، ومنع النفس من التوقف عنها حال كونها علانية، ورفع الحرج عن النفوس المؤمنة من ذلك، ودفعها للبذل والعطاء.

ثم أظهر سبحانه وتعالى الهدف والغاية من تلاوة القرآن، وأداء الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سبحانه وتعالى، بأنهم ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ يأملون بما كان منهم تجارة رابحة غير خاسرة ولا كاسدة أبداً، وهي التجارة مع الله تعالى، فليس ما كان منهم من أجل الرياء ولا للسمعة، ولا لتحصيل منافع بها من الغير. بل خالصة لله تعالى، ورجاء ما عند ربنا عَزَّ وجل.

ومن دقائق بيان كلام رب العالمين أن وردت الصلاة والإنفاق بالفعل الماضي ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بينما وردت تلاوة القرآن العظيم بالفعل المضارع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ لأن في قراءة القرآن تجدد في ترسيخ العلم وزيادته، فكلما أعاد وأكثر القارئ أو التالي من تلاوته ازداد به علماً، بينما الصلاة والنفقة متقرر حكمها، ومتقرر أوقاتها المفروضة، ومثلها الزكاة، وما يلحق بها من عموم الإنفاق. بينما تجدد العلم للإنسان بتلاوة القرآن الكريم.

ثم ذكر تبارك وتعالى جواباً على رجائهم تجارة لن تبور ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فيعدهم ربهم عَزَّ وجل بالوفاء الكامل لهم ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ وهو الاستكمال والاستيفاء المضاد للنقص والبخس ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ ليستوفي لهم كامل الأجر والمثوبة. ثم من كرمه جَلَّ شأنه أنه يزيدهم عما يستحقون كرماً منه وفضلا ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾

فيعطيهم من فضله زيادة عما يستحقون إكراماً لهم. وهنا لم يحدد مقدار الزيادة، ليدل على المبالغة في كثرتها، وعظمتها. وهي أيضاً ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وفضل الله تعالى لا يحصيه ولا يحده أحد، فاستوفى بذلك كمال المبالغة في الزيادة. بل أكده بصفتين من صفاته العظيمة سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فإن ربكم مُتصف بالمغفرة للذنوب، وما يحصل من تقصير العباد، لمن تاب وآب إلى ربه، وبالتالي فلن يمنع ما كان منكم من الذنوب عظيم فضله. وكذلك من صفات ربكم أنه ﴿شَكُورٌ﴾ والشاكر يستعظم ما كان من غيره، فيمدهم في الوفاء والعطاء بما لا يحتسبون، بل وردت ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ بصيغة المبالغة إلى أعلى ما يمكن أن يكون من هاتين الصفتين العظيمتين الجليلتين. كما أفادت ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ التعليل للوفاء في الأجور، والزيادة عما يستحقون، مما رتبه الله تعالى لهم. بل وأكده بحرف التأكيد الملتصق بحرف الإشارة له جَلَّ جلاله ﴿إِنَّهُۥ﴾ بأنه غفور شكور سبحانه وتعالى، وفي هذا بشارة عظيمة للمؤمنين، ومحفز لغيرهم بالدخول في دين الله سبحانه وتعالى. فلك الحمد والشكر يا ربنا على هذا الامتنان وهذا العطاء. اللهم اجعلنا من أهل فضلك وكرمك وإحسانك بمنك وجودك يا غفور يا شكور.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعظمة كتابه القرآن الكريم، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ إن الذي أوحينا لك به أيها الرسول هو الحق، ومن مميزاته أنه مُصَدِّق للكتب المتقدمة عليها، أي: يصدقها، كما أن الكتب السابقة تشهد له، فهو موافق لما في الكتب السابقة التي أنزلها الله تبارك وتعالى على من سبق من الرسل.

وقد تضمنت الآية الكريمة المدح والثناء على القرآن الذي وصف المؤمنين فيما سبق أنهم يتلونه ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فإنه وحي إليك من ربك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك رفعة لمقام النبي عليه الصلاة والسلام، ورفعة للمؤمنين الذين يتلون ما أوحى به الله عَزَّ وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فالكتاب الذي أوحينا به إليك ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ مما يفيد أن جميع ما فيه هو حق، وبالتالي أن كل ما يعارضه هو باطل، فإنه مصدر تشريعي للحق، ومن أراد الحق فعليه بالقرآن، ومن أراد العلم الحق فعليه بالقرآن، ومن أراد الأحكام والحلال والحرام فعليه بالقرآن، ومن أراد المنهج والسبيل الذي يهدي للطريق المستقيم فعليه بالقرآن. فهو فضل من الله تعالى على العباد، بأن أنزل إليهم الحق.

ثم بين تبار وتعالى هيمنة القرآن على كل الكتب المتقدمة عليه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو الذي يصدق ويصادق على ما قبله من الكتب، فما خالف القرآن فليس منها، بل هو تحريف لها، وما وافق القرآن منها، فهو حق، كما هو القرآن حق. ومعنى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما تقدم عليه في النزول، على من سبق من المرسلين، كالتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام. مما يبين أن دين الله تعالى واحد، قائم على توحيده عَزَّ وجل، وعلى أركان الإيمان، والعبادات، وإن اختلفت بعضها عن بعض في دقائق من التشريع.

ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ إن ربكم بكم أيها الناس ﴿لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بمواضعها، مهما كان حال العباد، وفي أي موضع كانوا. فإنه يحصي عليكم حتى دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء أبداً، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزيون على ذلك. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت. فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر وما بطن منكم. لتشمل السرائر والنوايا، وما يتحدث به القلب، ولم ينطق به اللسان. مما يفيد احذروا من سيء الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله. وفي هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في الْمُخَاطَب الانتباه، واليقظة، والحرص والوقاية من فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر، والتحرز منها بكل حذر، وكذلك بأن لا يحتقر من المعروف شيئاً أبداً، مهما كان في نظره زهيداً، فإن الله تعالى يُثيب عليه، ويضاعفه أضعافاً مضاعفة. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع مخلوقاته، في تحركاتهم، وأماكنهم، فلا يغيب عنه من خلقه شيء، وفي إدراك هذا العلم بأن الله تعالى خبير، ما يقوي به إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله اللطيف الخبير.

وكذلك ربكم بجميع عباده ﴿بَصِيرٞ﴾ أي: بصير بأعمالكم وأقوالكم، وبالتالي مراقب عليكم، فلا يخفى عن علمه شيء مما يكون منكم، ومن غيركم. وقد ورد البيان الرقابي بدقة عالية، فبدأها سبحانه وتعالى بالتأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ التي هي نون التوكيد التي سبقت لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ لتعطي بياناً تأكيدياً لكمال القدرة الربانية، والأهمية، والتفخيم والتبجيل والعظمة لصفتي ﴿لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ ولإفادة أن علم الله تعالى مستمر لا ينقطع، ولا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وكذلك ورد بصيغة التعميم لجميع العباد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ ليفيد علمه بكم، وبما يكون من جميع عباده، مما يبني في المؤمن قوة التوكل على الله تعالى في

كل شأن، فهو البصير بهم، وهو الذي يعلم ما لا يعلم الإنسان من نفسه ومصالحه، وما هو كائن لعباده، وما يمكر به الماكرون، وهو الذي يدفع ويقطع ويمنع ما تكرهون. وبالتالي فأطيعوا ربكم وتوكلوا عليه، فإنه بصير بجميع خلقه. كما أن دلالة ﴿ بَصِيرًا ﴾ تجمع رؤية ربنا للعباد، وتجمع معها المعرفة بتدبير شؤون العباد. فيحقق لهم الخير إن كانوا مطيعين له سبحانه وتعالى، فيتحقق لهم الخير، والنصر والتمكين والتوفيق، لأنه سبحانه وتعالى بصير بما كان ويكون وبما سيكون، وما هم عليه من الحق، وفي المقابل علمه بما عليه مستقبلهم قبل أن يكون. وهو البصير بكيف يحقق لعباده المؤمنين ما يحتاجونه في كل شأن. فإن في دلالتها لطائف عظيمة كريمة، فسبحانه الله العظيم، الخبير البصير. اللهم وفقنا وسددنا.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خير وهو قادر عليه، تذكر قوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه الخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

ثم يتدرج البيان في ارتقاء بشأن القرآن الكريم ومن حمله بالعلم والتطبيق والدعوة إليه. فقال سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فإنه بعد هلاك الأمم السابقة التي كفرت أورثنا هذا القرآن العظيم من اخترناهم من عموم العباد لحمله، فكانوا على ثلاثة أحوال.

فيخبر سبحانه وتعالى بعظمة هذا القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والتوريث هو ما يأخذه الخلف عن السلف، بما يفيد أن هذا الكتاب سيتوارثه من اصطفاهم سبحانه وتعالى لكتابه العظيم ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ والمصطفين هم من يختارهم الله تعالى لكتابه، ليفيد أن من وفقه اللهُ سبحانه وتعالى لكتابه، فقد حظي بشرف الاصطفاء، وهي منزلة عظيمة أن يصطفيك ربك من بين خلقه لتحمل هذا الكتاب: علماً وعملاً وتعليماً ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فالجميع عباده، وهؤلاء مخصوصون من بينهم بخصوصية الاصطفاء والاختيار، والتوفيق لذلك.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأصنافهم وأحوالهم مع الكتاب العظيم، القرآن الكريم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أنسب تعريف وبيان لكل فئة من تلك الفئات. فالفئة الأولى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. والفئة الثانية: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. والفئة الثالثة: ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات. التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات[١] فالذين ورثوا الكتاب هم المؤمنون، فجميعهم قد اصطفاهم الله عَزَّ وجل ليرثوا الكتاب. فكانت أحوالهم على هذه المراتب الثلاث، وهذا التقسيم الذي أوضحه تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة يبين للمؤمنين أن عليهم الاجتهاد في الارتقاء إلى فئة السابق للخيرات. والعلم بأن أحوال المؤمنين تدور بين هذه الأحوال الثلاثة. ثم يخبر سبحانه وتعالى أن ذلك الشأن من التوفيق للسابق بالخيرات أنه ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتسديد الله تعالى له، فإن سَبْقُهُ للخيرات كان بتوفيق الله عَزَّ وجل. مما يتطلب من المؤمن أن يكون حاله مع الاجتهاد والإخلاص أن يكثر من الدعاء بأن يوفقه الله تعالى ليكون من السابقين للخيرات.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن قيمة ومنزلة هذا الميراث وتورثه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: فأولئك الذين أورثناهم الكتاب، فهو متعلق بتوريث الكتاب والاصطفاء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ فالذين حصلوا على هذا الاصطفاء وما ورثوه من الكتاب، فإنهم قد حصلوا على ميزة الفضل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ وهو الزيادة والكرم في العطاء من الخير، ثم أكد عَزَّ وجل منزلة هذا الفضل بزيادة التعظيم له، فوصفه بأنه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم في نوعه وشرفه ومنزلته، وما يتحقق لهم به من خير الدنيا والآخرة. فهذا الفضل الكبير قد تحقق لهم جميعاً، مع اختلاف مراتبهم، فهو كبير وعظيم حتى للظالم لنفسه، فكيف بالمقتصد الذي هو أعلى منه، وكيف بالسابق؟ فإنه شرف وفضل عظيم قد ناله الذين اصطفاهم الله تعالى لميراث وتوارث كتابه العظيم، ودينه القويم. وهو الذي بينته الآية الآتية.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٦٢)

ثم أخبر تبارك وتعالى بذلك الفضل الكبير، الذي يمثل ثواب الذين اصطفاهم سبحانه وتعالى، فأورثهم الكتاب، فجمع لهم فيه حصولهم على دخول الجنة بفضله وكرمه ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ فلهؤلاء الذين أورثهم الله تعالى الكتاب ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ أي: جنات دائمة الإقامة، لا تزول، ولا تحول. ومن الفوائد أن معنى: ﴿ عَدۡنٖ ﴾ أي: وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع. وهي جنات استقرار وثبات، قال أبو عبيدة أي: في جنات خُلْد، يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[١] وعَدَنَ بالمكان: أقام به، وعَدَنَ بالبلاد توطنها. وعَدَن الأرض: سَمَّدَها. فهي جنات دائمة لا نهاية لها. ﴿ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ يدخلون الجنة دخول إقامة دائمة لا تنقطع.

وكذلك ﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا ﴾ أي: فبمجرد دخولهم الجنة يلبسون أجمل الزينة من الحلي، وذكر سبحانه وتعالى أصول تلك الحلي، وهي ثلاث أصول: الأصل الأول: ﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ ﴾ وهو ما يُجعل في اليدين ﴿ مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ أي: من حُلي الذهب. والأصل الثاني: ﴿ وَلُؤۡلُؤٗا ﴾ وكذلك من حلي اللؤلؤ. والأصل الثالث: ﴿ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ حرير من استبرق، أخضر، ومن سندس. وتحت كل أصل من تلك الأصول أنواعاً شتى، لا تُعد ولا تحصى. فحرف ﴿ مِن ﴾ المتكرر مرتين ﴿ مِنۡ أَسَاوِرَ ﴾ والثاني ﴿ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ يفيد التبعيض، لكثرته وتنوعه. ونسأل الله تعالى بفضله وكرمه ورحمته أن يجعلنا جميعاً من أهلها على سرور متقابلين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما يقوله الذين أدخلهم عَزَّ وجل الجنة برحمته وفضله ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴾ فقد بدأوا بالحمد لله ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ فأسندوا الثناء والشكر لله عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ ﴾ فقد أذهب الله تبارك وتعالى عنا كل أنواع ودرجات الحزن، فأصبحت قلوبهم خالية من الحزن، فلم يعد في قلوبهم تحسر على شيء مضى، فخلت قلوبهم من أحزان ما مضي في جميع أحوالهم. بما يفيد أنه قد حل في قلوبهم كمال الرضا، والسعادة، لأن الحزن متعلق بالماضي، ولذلك لم يذكروا هنا، زوال الهم، لأن الهم متعلق بالحاضر والقادم. ولا شيء يجعلهم يفكرون فيما هو متعلق بالقادم والحاضر، ففي الجنة كلما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين. ثم أثبتوا ذلك بالثناء الذي قرروا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

به أن الله سبحانه وتعالى هو المتصف بصفة المغفرة، وصفة الشكر ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ بأن تجاوز عن ذنوبهم بمغفرته عَزَّ وجل لِمَا كان منهم من الذنوب، وسترها ومحاها. فنجوا بتلك المغفرة من كل مكروه. وكذلك بأنه ﴿شَكُورٌ ﴾ يعطي العطاء العظيم على العمل اليسير. إذ أثابهم على الحسنات، بل ضاعف لهم في الثواب عليها، بما جعلهم يحصلون على ما لا تبلغه أعمالهم من الجزاء العظيم.

مما يبين أن الله سبحانه وتعالى بكرمه وجوده يغفر للمؤمنين زلاتهم، فتحصل لهم النجاة مما يكرهون من جميع أنواع ودرجات العذاب. وأنه سبحانه وتعالى مُتصف بصفة الشكور، الذي يعطي العطاء العظيم على العمل اليسير. فحصل لهم ما قرروا به أن ربنا غفور شكور، وأسندوا أنفسهم لربهم ﴿إِنَّ رَبَّنَا ﴾ لقوة اعتزازهم بربهم، وفرحهم وسرورهم الذي هم فيه، ومؤكدين ذلك بنون التوكيد في مطلع تقريرهم بأن الله تعالى غفور شكور ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ تأكيد حقيقة لِمَا بعده من القول، وهو إثبات صفتي المغفرة والشكر. فالحمد لله تعالى على مغفرته وعظيم ثوابه للمؤمنين.

ثم عللوا قولهم بأن ربهم غفور شكور بما نالوه من الخير الذي حصل لهم من ربهم تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فإن ربنا تبارك وتعالى غفور شكور إذ هو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا ﴾ أي: أنزلنا وأسكننا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، وهي الجنة، دار الخلود، التي يطيب المقام بها، لما فيها من عظيم النعيم الذي لا يزول ولا يحول. فسرورها لا يزول، بل متوالي فيها السرور. ثم أسندوا ما هم فيه لفضله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فلولا فضله لما وصلنا بأعمالنا إلى ما وصلنا إليه. مما يفيد أن عطاء الله عَزَّ وجل من فضله كان عظيماً، يتجاوز أعمال عباده المؤمنين من الحسنات، فهو يتفضل عليهم بالفضل الذي لا تبلغه طاعة المطيعين، كرماً وجوداً منه جَلَّ جلاله.

ثم ذكروا أن من نعيم دار المقامة العظيم ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فلا يجدون فيه ﴿نَصَبٌ ﴾ وهو التعب والعناء والمشقة. وكذلك ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ وهو الكلل والملل، والإعياء من جراء عمل يقومون به، فلا يصيبهم ما تتعب منه الأبدان، ولا ما تتكدر به القلوب والنفوس. بما يفيد دوام الصحة والعافية والسعادة والبهجة والسرور الذي لا يفارقهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ ﴾

فبعد بيان الله تعالى لحال المؤمنين الذين ورثوا الكتاب وما هم فيه من النعيم المقيم يوضح ويبين سبحانه وتعالى حال الكافرين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ والذين كفروا في الحياة الدنيا لهم في الآخرة نار جهنم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ فهذا هو مصيرهم، بما يفيد التحذير والترهيب، وأن من صفات حالها وحالهم فيها ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾ فلا تفنيهم النار بحرارتها واشتعالها بهم، فيموتوا بقوة حرارتها، واحتراقهم بها، فيستريحوا من عذابها ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ ولا يحصل لهم التخفيف من العذاب، بل شدة عذابهم واحتراقهم بها مستمرة بهم، فلا تنقطع عنهم أبداً. وفي هذا وصف لحالهم ولحال النار معهم، فهي حياة عذاب لا تنقطع أبداً. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ فمثل هذا الجزاء العظيم الشديد نجازي ونكافئ به كل من كفر بما جاءتهم به الرسل من ربهم. وفي هذا تحذير وتنبيه لما سيكون من أحوال الكفرة. فعليهم طاعة الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

وحالهم فيها أنهم يتصايحون من شدة العذاب، رغبة في الخروج منها ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ وحالهم هو الصراخ، برفع أصواتهم بالبكاء ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ والاصطراخ مبالغة في الصياح بشدة، ببذل الجهد في إخراج الصوت به، وذلك نتيجة ما أصابهم من قوة العذاب وشدته، رافعين أصواتهم بقولهم ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا ﴾ يا ربنا أخرجنا من النار ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ فأعدنا إلى حيث نتدارك ما كان منا من الكفر، ونعمل بالطاعة، التي هي أعمال الصلاح التي تركوها

وتجاهلوها في الدنيا. فقد اعترفوا بأنها صلاح، بينما كانوا في الدنيا يسخرون ويستهزئون بها، ويمتنعون أن يعملوا بها ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ نعمل بخلاف ما كنا عليه من أعمال الكفر والمعاصي في الدنيا.

فيقول الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ألم نمكنكم من الزمن والعمر ما يكفيكم من فهم الدين واتباع الرسول ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ سؤال استنكار، وتقريع وتوبيخ لهم. مع التقرير لهم بأن ربكم قد عمركم عمراً مديداً، وكافياً بأن يتذكر من أراد أن يتذكر، بما ذكرناكم به من الآيات الكونية، والحجج والبينات التي حملها لكم المرسلون ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ وهو شامل لكل ما ينذر الإنسان، فأرسل الله عليهم المرسلين منذرين عليهم أفضل الصلاة والسلام، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نذيراً وبشيرا، ومعه القرآن الكريم نذيراً وهادياً وبشيرا. ويشمل الإنذار كذلك جميع الحوادث والأمراض والمصائب، فإنها نذير، ومنها علامات الشيخوخة من الشيب والضعف، فإنها نذير، وكذلك المواعظ، فإنها نذير، والآيات الكونية وأحداثها من الزلازل والبراكين، فإنها للعالمين نذيرا. فإنها جملة شاملة لكل نوع وصنف من النذارة، وقد أورد ابن الجوزي وغيره ما ذكره أهل العلم منها: أن المقصود بها الشيب، قاله عمر، وعكرمة، وسفيان بن عيينة. والقول الثاني: أنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم. قاله قتادة، وابن زيد، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: موت الأهل والأقارب. والرابع: الحمى. ذكره الماوردي(١) فاستوعبت دلالتها تلك الأقوال وغيرها. وهذا من عظمة البيان في مساحته التي استوعبت أحوال النذارة مما سبق من البيان، والفناء، والبعث بعد الموت، ومن أحوال حياة الأرض وموتها وحياتها بعد موتها، وتقلب الليل والنهار، وغيرها من آيات الله تعالى في الكون والأنفس.

ثم يوبخهم الله تعالى على ما كان منهم حال السعة التي أمدهم بها تبارك وتعالى ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فذوقوا العذاب، فليس لكم من ينقذكم منها ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا الحق بإنكاره، وظلموا المرسلين بتكذيبهم، فليس لهم من ينصرهم من هذا العذاب، فيدفعه عنهم. بما يفيد زيادة الحسرة في قلوبهم، وتثبيت اليأس من النجاة في نفوسهم، فليس لكم إلا ما أنتم فيه من العذاب. ونسأل الله تعالى السلامة. وقد أنذر الله تعالى العباد بما أوضحه لهم أكمل وأبلغ إيضاح وإنذار. اللهم اهدنا ووفقنا وسددنا، وسلمنا برحمتك إنك أنت الغفور الشكور.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٥٨)

ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن عظيم علمه الذي شمل كل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ إن الله تبارك وتعالى متصف بكمال العلم لكل شيء. فهو العالم بما هو غائب في السماوات والأرض، فلا تدركه معارف العباد. مما يفيد تقرير قصور علم العباد، وأن عليهم التعامل مع ربهم في طاعته وامتثال أمره بما قرره لهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن الله جَلَّ جلاله عالم بكل شأن في السماوات والأرض. فلا غائب عنه في السماوات العالية، ولا في الأرض التي تعيشون فيها أيها الْمُخَاطَبُون، فقد أفاد ذلك إثبات العلم بالغيب، ونفي أن يفوت عن علمه عَزَّ وجل شيء أبداً، بل من دقة علمه عَزَّ وجل أنه يعلم ما يدور في النفوس، وتتكتم عليه الصدور من نوايا وتدابير دون أن يتفوه بها العباد ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ إن الله تعالى عليم بما تضمره الصدور وتتكتم عليه. وبالتالي هو عالم بكل شيء. وقد أفاد هذا البيان المبالغة في العلم إلى أقصاه ومنتهاه، فيعلم ما يغيب في السماوات والأرض، حتى ما تكنه وما يختلج وتتحفظ عليه الصدور. فقد أشارت الآية الكريمة إلى العلم العام بكل شيء، ثم أفرد سبحانه وتعالى علمه حتى بما في الصدور. ليفيد المبالغة والتحذير من الاشتغال بالشر والمعصية. وهو تدرج حكيم في البيان.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى إظهار حكمته وقدرته من تتابع الخلق في الأرض ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فهو الذي جعل بعضكم يخلف بعض، فيذهب هذا ويأتي هذا ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فربكم هو الذي جعل الحياة تَتَابع بينكم على الأرض، مما يدل على عظيم حكمته، وعظيم قدرته. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: بأن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، واستخلفكم، فجعلكم خلائف منهم في الأرض، تخلفونهم فيها، وتعمرونها بعدهم، والخلائف جمع خليفة، وهي من قول القائل: خلف فلانٌ فلاناً في داره، يخلُفُه خلافة، فهو خليفة فيها[1] مما يفيد أن من سنن الله تعالى وآياته عدم ثبات

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٥٠)

الحياة بين البشر، فإن الناس يتتابعون بين وفاة السابق، وولادة اللاحق؛ ممن سيخلف غيره بعده. فإنهم يُولدون ثم يموتون، ليأتي غيرهم من بعدهم، وكذلك انتقال الأملاك، فتنتقل من شخص لآخر، فيخلفه غيره فيها. وكذلك المكانة والمنزلة، إذ تنتقل من شخص لآخر، فيخلفه غيره فيها، فليس فيها ثبات لمن يؤل إليه أمر من الأمور، أو ملك شيء من الأملاك، بل إنها تتناقل بين العباد، ليتعظ بذلك المؤمن، ويستدل بها الكافر على سنة الله تعالى وتدبيره عَزَّ وجل، ليتخذ من ذلك عبرة وآية وحجة، فيؤمن بالذي دبر هذا الكون العظيم. وفي ذلك من الدروس ما لا يحصى، فإذا أدرك المؤمن ذلك، استثمر ما هو فيه من جاه ومال وملك في طاعة الله تعالى، لأنه سيخرج عنه ويؤول إلى غيره، وإن ذهب منه شيء من جاه أو منصب أو مال أو غيره لم ييأس ويتحسر عليه، لأنه تحقق في علمه وفي ذهنه أن مآل كل شيء إلى الغير بالتناقل، وإن حصل غيره على شيء لم يحسده؛ لأنه منقول إليه، ثم منقول عنه.

ثم يبين سبحانه وتعالى حال الناس في الدنيا من حيث الكفر، ومن حيث الإيمان ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ فمن كفر بالله تعالى بالرغم من الحجج والبراهين والدلائل، فإنما نتيجة كفره من العذاب عائدة عليه، وليس على غيره. مما يبين محدودية المسؤولية، فلن تجني نفس جناية غيرها، لأن كل نفس رهينة بما تكسبه من خير أو شر ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ فلا يزداد الكافرون بتماديهم في الكفر وعنادهم إلا بغضاً وغضباً عند ربهم، مما يفيد بأنهم يزدادون عذاباً بكفرهم. وكذلك ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ وكذلك فإنهم لا يزدادون بتماديهم في الكفر إلا على تحصيل المزيد من الخسارة، إذ يخسرون ما كان لهم من خير الدنيا والآخرة، وهي خسارة عامة، تشمل جميع ما كان يمكن لهم بلوغه من الجنة. فالمؤمن في زيادة الربح، والكافر يزداد خسارته. وفي هذا تنبيه وتحذير، وكشف لحقيقة الكفر ومآل الكافرين.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إظهار ظلم وخطأ المشرك، وحقيقة الشرك، وما هو عليه من فساد العقل، الذي يُوجب عليه أن يحذر منه، بعد علمه بالحقيقة. فيقول تبارك وتعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين عن بطلان شركهم من كل وجه، فبدأهم أولاً: بالتحديد والتعيين للمخصوص الذي هو مدار الحديث عنه، وهو الشرك، وبطريقة السؤال الذي سيعقبه تقرير الحقيقة لهم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فبدأ الخطاب بالسؤال ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ بمعنى أخبروني فيما استخبركم عنه، أرأيتم بأنفسكم فيما

اتخذتم من الشركاء مع ربكم الله سبحانه وتعالى من الأصنام أو غيرها، وهم ﴿ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فتزعمون كذباً بدعائهم والتقرب إليهم من دون ربكم الذي خلق السماوات والأرض، والعالم بغيب السماوات والأرض وما في صدوركم. سؤال يقتضي التنبيه ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فيه استثارة نحو ما يعبدون من دون الله عَزَّ وجل، حتى يعقبه تفكيك الحقائق، وإظهارها بصورة واضحة.

ثم يقيم عليهم الحجة ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أظهروا لي ما الذي خلقوه من الأرض، فهل خلقوا شيئاً من الأرض، أو خلقوا زرعاً، أو أجروا ماء، أو خلقوا جبلاً، أو وادياً، أو أي شيء من الأرض. مما يفيد إن لم يخلقوا شيئاً فهم عاجزون، فكيف تطلبون من عاجز، ولا تفردون بالطلب والدعاء والعبادة للقادر الخالق سبحانه وتعالى.

ثم بعد سؤالهم عما إن كان لمعبوداتهم من دون الله تعالى شراكة في خلق الأرض، ينتقل بهم في تدرج إلى حقيقة أخرى تُبطل ما هم عليه من الشرك ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أو أن لتلك المعبودات شراكة مع الله تعالى في خلق السماوات. وهذا من دقائق البيان، فإنه بيان إعجاز حتى في السياق ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فهل كانت لهم مشاركة في خلق السماوات. فلا يقر أحد بذلك. فإذاً كيف تعبدون مع الله تعالى عاجزاً، ليس له حق التصرف فيما خلق الله تعالى. وبالتالي فإنهم لا يستحقون ما منحتموهم من حق العبودية. فأنتم أعطيتم حق الله تعالى إلى من لا يستحق.

ثم يتدرج البيان في المحاجة من الأدلة العقلية الكونية إلى الدليل النقلي ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُ ﴾ فهل أعطيناهم كتاباً عندهم فيه بينة وحجة واضحة، يقرر لهم فيها ما هم عليه من الشرك. فإن في عجزهم عن الحقيقة لدليل على بهتانهم وافترائهم، فاخترعوا الشركاء افتراء وكذباً وزوراً. فليس عندكم كتاب من ربكم في ذلك. مما يبين بطلان شرككم من كل وجه. سواء من الأدلة الكونية والعقلية، أو الأدلة النقلية بكتاب مبين.

ثم يقرر لهم سبحانه وتعالى النتيجة ﴿ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ فإن الحقيقة ليست فيما انتم عليه. فحرف ﴿ بَلۡ ﴾ ينفي فهمهم ويبطله، ليقرر ما بعده من البيان، وهو ﴿ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ فإنما أنتم عليه من الشرك هو نتيجة تتابع الظالمين في نقل الظلم لأنفسهم من جيل إلى جيل بالتغرير والتقليد، الذي مبناه الإيهام للغير بأن الخير في الباطل. فيقرر الظالمون

الأوائل لمن بعدهم ظلم الشرك، ووعودهم ومعاهداتهم بأنه هو المسار والاتجاه الصحيح. فهو نتيجة التغرير المتتابع من جيل إلى جيل، ووعود بعضكم لبعض من صحة ما أنتم عليه من الافتراء والزور. والأمر والشأن منكم ليس غير ذلك الذي قرره ربكم العليم بكم. فيقتدي اللاحق بالسابق من غير حجة ولا برهان. مستخدمين في ذلك أسلوب التغرير: الذي هو إدخال الإيهام في تفكير الغير، فيحمله على اعتقاد وإيهام مخالف للحقيقة، فَيُظهر الفاسد في صورة النافع، والباطل في صورة الحق. فكان هذا هو سبب شرك المشركين وتتابعهم في شركهم. مما يبين خطر الغرو والتغرير، وأهمية الانتباه له، سواء من تغرير النفس، أو من تغرير الغير، أو من طبيعة زينة الحياة الدنيا وشهواتها وشبهاتها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

فبعد أن نفى سبحان وتعالى مشاركة غيره له في خلق السماوات والأرض، يخبر ويثبت سبحانه وتعالى لعباده أنه القائم على شأن بقاء السماوات والأرض، فيقول عزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ إن الله تعالى بفضله وحكمته وقدرته هو الحافظ للسماوات والأرض من الزوال والوقوع والذهاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ فليس هناك حافظ لهما غيره جَلَّ جلاله. ففي هذا الإثبات نفي للشريك، وتوحيد الْمُلك له وحده لا شريك له، فإن استحقاق العبادة له وحده لا شريك له. وأن الأمر والشأن كله بيديه عزَّ وجل. مما تتحقق به الرهبة والرغبة، فالرهبة من سلطانه وقوته وقهره وعزته، والرغبة فيما عنده من عظيم الفضل.

ثم يتدرج الكشف للحقائق من إمساك السماوات والأرض إلى إمساكها حال وقوعها وذهابها ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ فلو زالتا لم يمسكها أحد، لأنه لا قدرة لأحد على منع زوالها، لعجز كل المخاليق عن ذلك. بالتالي تقرير بطلان جميع القوى على أن تمسكها، ومن ضمن أولئك من تشركونهم مع الله تعالى من المعبودات، سواء من الجمادات أو الأحياء كالملائكة، أو الأموات من البشر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن صفتين عظيمتين له عَزَّ وجل، تستدعي التوبة وطلب المغفرة منه جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فإن ربكم متصف بالحلم والمغفرة. فهو حليم غير عجول سبحانه وتعالى في تقرير العقوبة وإنزالها، وكذلك هو غفور لمن تاب ورجع إلى ربه سبحانه وتعالى. وهذا من عظيم كرمه وإحسانه على عباده عَزَّ وجل.

ثم يكشف الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ولجميع العباد ما كان من قريش قبل بعثته صلى الله عليه وسلم من الوعيد بأنه لو جاءهم رسول من عند الله ليكونن أهدى الأمم ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ فقد حصل من قريش القسم بالأيمان من الوعد الجازم بالأيمان المغلَّظة، بأنه لو جاءهم رسول من عند الله ليكونن أهدى من جميع الأمم السابقة في الاتباع والامتثال، ونصرهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ولدين الله تعالى. وذلك لِمَا كانت تتمناه العرب من أن يكون منهم رسول.

ويبين القسم منهم شدة الرغبة والعزيمة ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي: أن هؤلاء المشركين أقسموا غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وبلغتها قدرتهم ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أنه إذا جاءهم ما يطلبون ويتمنون، بأن يرسل الله تعالى لهم رسولاً ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ ليكونوا خير الأمم اهتداء. مما يدل على أنهم حلفوا أيمانا مؤكدة، وكانت الإيمان بالله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ مما يدل على أنهم يعتقدون بأن الله ربهم، ولكن يشركون به، فدل ذلك على عظيم معصية الشرك وأنه كفر، وأن الله تعالى لا يقبل الشرك من المشركين. بل بالغوا في القسم ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ فجهد الأيمان دليل على مبالغتهم في الأيمان إلى أقصى ما يعرفون منها. لأن الجهد هو بذل أقصى ما يمكن، وما يعرف، وما يستطيع. وجهد الأيمان الذي اقسموه هو أبلغ وأقوى ما يعرفون منها، وبلوغ غايتهم في ذلك.

مما يبين شدة رغبتهم، بأن أقسم هؤلاء بأنه إن جاءهم رسول ليؤمنوا به ويصدقونه، وينصرونه. وربما كان سؤالهم ليس على سبيل الاستهداء، وإنما على سبيل التحدي مع من يقابلون ويواجهون من أهل الكتاب

في الشام أو المدينة، فلم يكن سؤالهم على سبيل طلب الهدى، قال القرطبي رحمه الله تعالى: يعني أهدى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب. وكانت العرب تمنى أن يكون منهم رسول، كما كانت الرسل من بني إسرائيل[١] وقد أشار إلى هذا ابن عاشور رحمه الله تعالى، بشيء من التفصيل[٢] وهو أمر غير مستبعد.

فأقسموا على أن يكونوا أفضل وخير من يقبل الرسول ويؤمن به ويعضده ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ فإن أرسل الله تعالى إليهم رسولاً ليكون حالهم معه خير وأفضل مما كان مع الأمم السابقة مع رسلهم، بما يفيد المبالغة في خيرية الاتباع. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: المراد قريش، أقسموا قبل أن يبعث اللهُ محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، ومعنى ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يعني المكذبة للرسل[٣] فهم يزعمون بأنهم حال يأتيهم الرسول سيكونون خيراً وأفضل الأمم السابقة في تلقي الكتاب والرسول، بل أفضل من أهل الكتاب. بما يفيد مبالغة القبول منهم، والمتابعة للرسول الذي يُرسل إليهم إذا جاءهم.

ولكن حينما تحقق الأمر فيهم، كانوا مثل غيرهم في التكذيب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فلما جاءهم ما كانوا يتمنونه ﴿جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، لم يتقبلوه ويستقبلوه بما أقسموا من الأيمان المغلظة، بل كانوا على الضد من ذلك ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ازدادوا تباعداً وإعراضاً عن قبول الحق. وقد أفادت جملة ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أنهم كانوا في نفور من الحق، بشركهم، حيث اتخذوا الأصنام الهة من دون الله تعالى، فلما جاءهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ازدادوا بعداً بالغلو في شركهم، تحدياً ومبارزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدينه العظيم، وشرعه الحنيف. فقد أثبتت الآية الكريمة نفورهم، ثم زادوا في نفورهم بعد بعثته عليه الصلاة والسلام.

وقد أفرد الله تبارك وتعالى النذارة، وتسمية الرسول صلى الله عليه وسلم هنا بالنذير، دون إقرانه بالبشير ﴿جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لأنه الأنسب في هذا المقام، لما كان منهم، وهو ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فهو نذير

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٨/١٤)
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٣/٩)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٥٥/٤)

لهم مما هم فيه من الشرك، الذي توغلوا فيه، خاصة بعد بعثته عليه الصلاة والسلام. وهذا من دقائق البيان في القرآن الكريم، واقتصار الألفاظ على دلالاتها. فهو نوع من الإعجاز البياني للسياق.

وهو دليل وحجة عليهم، بمعرفتهم بما يُرسل الله تعالى من المرسلين، وأنهم كانوا يتمنون ذلك، على سبيل التحدي لغيرهم في الاتباع، أو على سبيل أنهم أهل دين بشركهم. كما أن فيه من مزيد الفوائد: أن الإنسان قد يعد، ويقول، ويجازف في القول. ولكن عند حصول المطلوب يكون على غير الوجه الذي تمنى ووعد به. وسواء كان ذلك في الدين، أو المال، أو الجاه، أو غيره مما يتمنى الإنسان. فقد يقرر ويجزم بأنه لو ملك المال لأنفق في الخير، فإذا جاءه المال أمسك. مما يدل على خطر الوهم بالحكم على واقع النفس، وحاضرها. وأن على المؤمن أن يطلب من الله تعالى العون والتسديد، ولا يعتمد على نواياه، فقد تتغير عند حصول المؤثرات. فنسأل الله تعالى الثبات على الحق، وأن نموت ونلقى الله عَزَّ وجل على ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الحق.

ثم يخبر تبارك وتعالى بعلة النفور ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

فإن علة وسبب نفورهم هو: الاستكبار والمكر، عاملان خطيران ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ فالاستكبار هو الاستعلاء الذي يشعرون به في أنفسهم أينما حلوا وكانوا من الأرض، هو أحد أسباب ذلك النفور من أن يقبلوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستجابة والطاعة الله تعالى، وترك الشرك. وقد أبان الوصف الكريم قوة مبالغتهم، فكلمة ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ تفيد المبالغة في التكبر، كما أن ربط مساحة التكبر بالأرض ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما يفيد رؤيتهم لأنفسهم أينما كانوا من الأرض بأنهم لا يرون أحداً أفضل منهم، ويرون أنهم الأفضل والأخير. فاستنكفوا حتى من أن يكونوا مطيعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي يعرفونه حق المعرفة بأمانته، وصدقه، وما هو عليه من مكارم الأخلاق والنبل والفضل حتى قبل بعثته عليه الصلاة والسلام. مما يدل على خطورة النفس التي تستعلي على الحق، وترى أنها أكبر من الحق المبين.

والسبب الآخر لنفورهم هو ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ الذي هو الخديعة والحيلة والغدر، وهو إخفاء الشر والأذى، وإظهار خلافه، فهو إرادة الغدر في الثوب الحسن، بل من شدة مكرهم أن أُضيف إلى المكر صفة السيء ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ مبالغة في الوصف، خاصة أنهم يواجهون ويقابلون به الحق الذي اتصف بصلاح الظاهر والباطن، والخالص النقي من كل وجه وجانب، بل المحقق لهم خير الدنيا والآخرة. مما يبين أن هناك نفوس مبغضة للحق، وإذا ابغضته استخدمت تجاهه جميع أنواع الغدر والخيانة. وإذا هذا في شأن الدين، فمن

باب أولى أن يكون في جميع أنواع وفروع الحق ومراتبه وأنواعه. مما يفيد الحذر من تلك الطبائع الشرسة البغيضة، والممتلئة بالكبر والحسد.

ثم يخبر جَلَّ شأنه أن المكر السيء عائد شره على صاحبه ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ولا ينزل أثر المكر السيء في إحاطة محقه وسحقه إلا بمن مكروا، وهم أهله الذين صنعوه. ومن قوة التقبيح لهم بمكرهم، أن نسبه إليهم ﴿بِأَهْلِهِۦ ﴾ فهم أهله الذين يعايشونه، حتى أصبح صفة ملازمة لهم كملازمة الأهل للفرد منهم. وهذا غاية التقبيح الذي يستحقونه من الواصف المنافي لمكارم الأخلاق. مما يفيد أن الله سبحانه يكيد للكائدين بالباطل، وأنه يجعل شرهم عليهم، عاجلاً أو آجلاً، أو بهما معاً.

ثم من رحمته سبحانه وتعالى أنه يعظهم، وذلك بتذكيرهم بحال من سبقهم من الأمم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فهل بهذا المكر، وهذا الاستكبار ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهو هلاك من عاند وكفر من الأمم السابقة، فأخذهم الله تبارك وتعالى بالعذاب، وفي تسميتها بسنة الأولين، ما يفيد أن الله سبحانه وتعالى جعلها الطريقة في العقوبة لكل المكذبين من قبل، فإن الله عَزَّ وجل قد يُسَيِّرُها عليهم إن لم ينتهوا عما هم عليه من الكفر، ويطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم. وورد البيان بصيغة السؤال الاستنكاري الموافق لحالهم مع الحق الواضح المبين، والمقرر لهم بأنه إن لم ينتهوا عما هم عليه من الكفر والعناد ليصيبنهم ما أصاب الذين من قبلهم من الأمم الكافرة. ليفيد التهديد والتحذير والترهيب لهم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى جريان سنته، وأنه ليس لها تبديل ولا تحويل عما جرى به الأمر فيمن سبق ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ فيوجه سبحانه وتعالى البيان لكل المعنيين بهذا الخطاب ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ فلن تجد أيها المعني بالخطاب والبيان والتهديد والتهويل لِمَا سَنَّهُ وفرضه سبحانه وتعالى من عقوبات؛ مَن يمكنه تعديلها وتبديلها، وكذلك ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ولن تجد لسنته وعادته عَزَّ وجل مع المعاندين لرسله أن يتحول العذاب عنهم إلى غيرهم. فالتحويل هو التغيير بالنقل، أي نقل إيقاع العذاب، فلن تقع الرحمة في موقع العذاب، ولن يحصل الكفار المعاندين لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا على ما جرت به سنته سبحانه وتعالى فيمن سبق من الأمم. فهو غاية التحذير لهم من أن يقع العذاب بهم إن لم يستجيبوا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وقد كانت معركة بدر الكبرى أعظم دليل على ذلك.

ثم يلفت سبحانه وتعالى أفهام وعقول المشركين الصادين عن دينه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما يعرفونه من حقائق الأمم التي كفرت بالمرسلين عليهم السلام ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾ فيبدأ الخطاب البياني بالتوجيه الكريم في صيغة سؤال، الذي يحمل الاستنكار لهم عن عدم تعقلهم واسترشادهم واتعاظهم بغيرهم مما يعرفون ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فمروا وأتوا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبروا بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم؟ وهو سؤال يقرر لهم به أنهم قد سافروا من خلال رحلتهم التي أثبتها الله تعالى في سورة قريش، من رحلة الشتاء والصيف. فَيُورِدُ الله تبارك وتعالى سؤالاً تقريرياً بما حصل لهم من النظر والمرور بديار أهل العذاب، وكذلك هو استنكار ولوم وتوبيخ، يستنكر به على المشركين والصادين والمنكرين والكافرين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يتعظوا بما رأوا.

وهو كذلك بلاغ وإرشاد للصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم، فيكون سيرهم لرؤية الدليل وما يتعظوا به من الآيات ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ألم يحصل منهم السير في الأرض، وهو سؤال تقريع وتوبيخ وتقرير في نفس الوقت، فهو توبيخ وتقريع لعدم استفادتهم مما رأوا من آثار الهالكين بالعذاب، والتقرير بالآيات والنذر والحجج من آثار الهالكين التي يظهر عليها أثر ما أصابهم من العذاب، كقوم عاد، وصالح، وثمود. فإن العذاب واقع من الله تعالى على من كذب بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ألم يحصل منهم السير في الأرض ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ فيتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب. وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شدة قوة من كان قبلهم، مقارنة بقوة الْمُخَاطَبين من أهل مكة من المشركين آنذاك ﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾ لقد كان الذين من قبلكم من الأمم أكثر وأقوى منكم في القدرات والإمكانات.

وقد تضمن التوجيه الكريم لفت الانتباه لحاسة النظر وأهميتها، في التبصر والتفكر والاستدلال على الحق ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾ فجملة ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ ﴾ تشد الانتباه، وتلفت حواس التلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر في حال من سبق من الأمم المكذبة، ليكتشفوا ما هم فيه من الباطل، وما سيكون من حالهم إن لم يتعظوا بغيرهم من الأمم السابقة.

وتفيد دلالة ﴿ كَيۡفَ ﴾ استثارة الذهن نحو تقليب الفكر في الحوادث، وما سينتج عنه، وما ينكشف لهم من الحقائق، وما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والحسد والبغض.

ودلالة ﴿ كَيۡفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور الإنسان ما يحيط ببهتانهم وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالفاسد من القول والبهتان، ومن قلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، يتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه. وقد زادت كلمة ﴿ كَيۡفَ ﴾ من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَبين، بأن يتأملوا ويُمْعِنوا النظر في حال الأمم التي سبقتهم، ليعرفوا مخاطر التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يكذبون كذباً لا لبس في بهتانه، وظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أُنزل عليه الحق، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يدعوهم إلى الحق.

مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿ كَيۡفَ ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه. وهي تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى. بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام﴿ كَيۡفَ ﴾ فقال تعالى ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر. مما يبين عظمة أسلوب القرآن، ومقاصد ألفاظه الكريمة العظيمة.

فإن من صفات الذين كانوا من قبلهم أنهم ﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾ إذ حرثوا الأرض، فزرعوها بعد أن هيأوها بالحرث وجداول السقاء بالماء، وشيدوها بالقصور والمصانع، والزروع، ومجاري المياه، ونحت الجبال، وإنشاء النوادي لمجالسهم، فعمروها أكثر مما عمر أهل مكة وشيدوا، ومع ذلك لم تغنهم قوتهم وحرثهم وتشييدهم، وسكناها والتمتع بها.

ومع ذلك لم يكونوا بتلك القوة معجزين لله تعالى في شيء، لأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فما أنتم بمفلتين من عذاب ربكم سبحانه وتعالى،

لأنه عَزَّ وجل لا يصعب عليه شيء، فلا يعجزه شيء، وبالتالي فلا لأحد إمكانية التصدي لقوته في الكون كله جَلَّ جلاله، فما بالكم بحالكم الضعيف أمام الكون كله؟ واعلموا أن ربكم متصف بالعلم بكم وبما تدبرون، وأنه القادر على كل شيء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فربكم متصف بكمال العلم، وكمال القدرة، ومن كان له كمال العلم، عرف منكم وما سيكون منكم، وقادر عليكم قبل أن يكون منكم تدبيراً وتصرفاً لا يرضاه. وهذا أبلغ في التهديد والوعيد، الذي يُوجب عليهم الاتعاظ والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يختتم الله تبارك وتعالى سورة فاطر ببيان عظيم عن حلمه على عباده مع ظلمهم وتجاوزهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ فلو أن ربكم يُؤاخذ الناس بما يكسبون من الذنوب، فيؤاخذهم بالعقوبة العاجلة لأهلك الجميع، حتى لا يترك دابة تدب على الأرض. فلولا أن الله تعالى حليم على عباده لعاملهم بما لهم على ظلمهم الذي يستحقون به العذاب والهلاك، لاعتدائهم وتجاوزهم لحق الله تعالى على عباده، من التقديس، والتوحيد، والعبادة، والإيمان بما جاء عنه من الحق ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ فالذي يستحقونه بهذا الجرم العظيم أن يهلكهم هلاكاً لا تبقى معه دابة حية تدب على الأرض، مما يدل على عظيم جرمهم، وعظيم ما يستحقون من العذاب. ولكنه سبحانه وتعالى حليم وسِتّير، فينظرهم إلى أجل مسمى ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولكن يؤخرهم إلى منتهى آجالهم، فيؤخر عذابهم بما يستحقون إلى يوم القيامة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: معلوم ومحدود، لا يقصرون عنه ولا يجاوزونه إذا بلغوه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، فيوفي كل عامل بعمله[1] وكذلك قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أنه يوم القيامة[2] وهذا من لطفه تبارك وتعالى وحلمه العظيم. عصام

ثم يبين عَزَّ وجل تقديره وعدله في أخذ أرواح العباد ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ فإذا جاء وقت آجالهم لن يتأخروا ولن يتقدموا عنه ولو لساعة من الزمن، لأنه بصير

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٧٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٦٠)

عليم بما كان منهم، وعليم حكيم بحال تأخير العذاب عنهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ أي: بصير بأعمال وأقوال عباده وبتدبير شؤونهم، وبالتالي مراقب عليكم، فلا يخفى عن علمه شيء مما يكون منكم، ومن غيركم. كما أن دلالة ﴿ بَصِيرًۢا ﴾ تجمع رؤية ربنا للعباد، وتجمع معها المعرفة بتدبير شؤون العباد، وكيف يدير شؤونهم. فإن ربكم بصير بتدبيره تعجيلاً وتأجيلاً. مما يفيد الحذر مما هم عليه من الكفر العظيم، والتجاوز في كفرهم، فإن هذا الوقت هو وقت الإنذار والإمهال، فليستفيدوا منه قبل اللحظة التي لا يُؤخَرُون عنها، ولا يتقدمون عليها. وفي هذا بيان وتعليم لكل إنسان بأن إمهال الله تعالى للعاصي هو لحلمه تبارك وتعالى، وأن على الإنسان اليقظة مما هو فيه، فإنه إذا حَلَّ الأجل فلن يُؤخر عنه حتى يتوب ويعمل صالحاً، فكما أنه لا يُؤخره عن أجله، فكذلك لا يُقَدِّمُه على أجله. فإنه عدل من الله تعالى حتى في قضاء آجال العباد الذي كتبه لكل إنسان، فسبحان الله تعالى العظيم الحليم.

تم بحمد الله إتمام سورة فاطر، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله.